آلان واتس

هل عالمنا تـهُم ؟!

Telegram:@mbooks90

إجابات أسئلة نطرحها على أنفسنا منذ ميلادنا وحتى الموت.

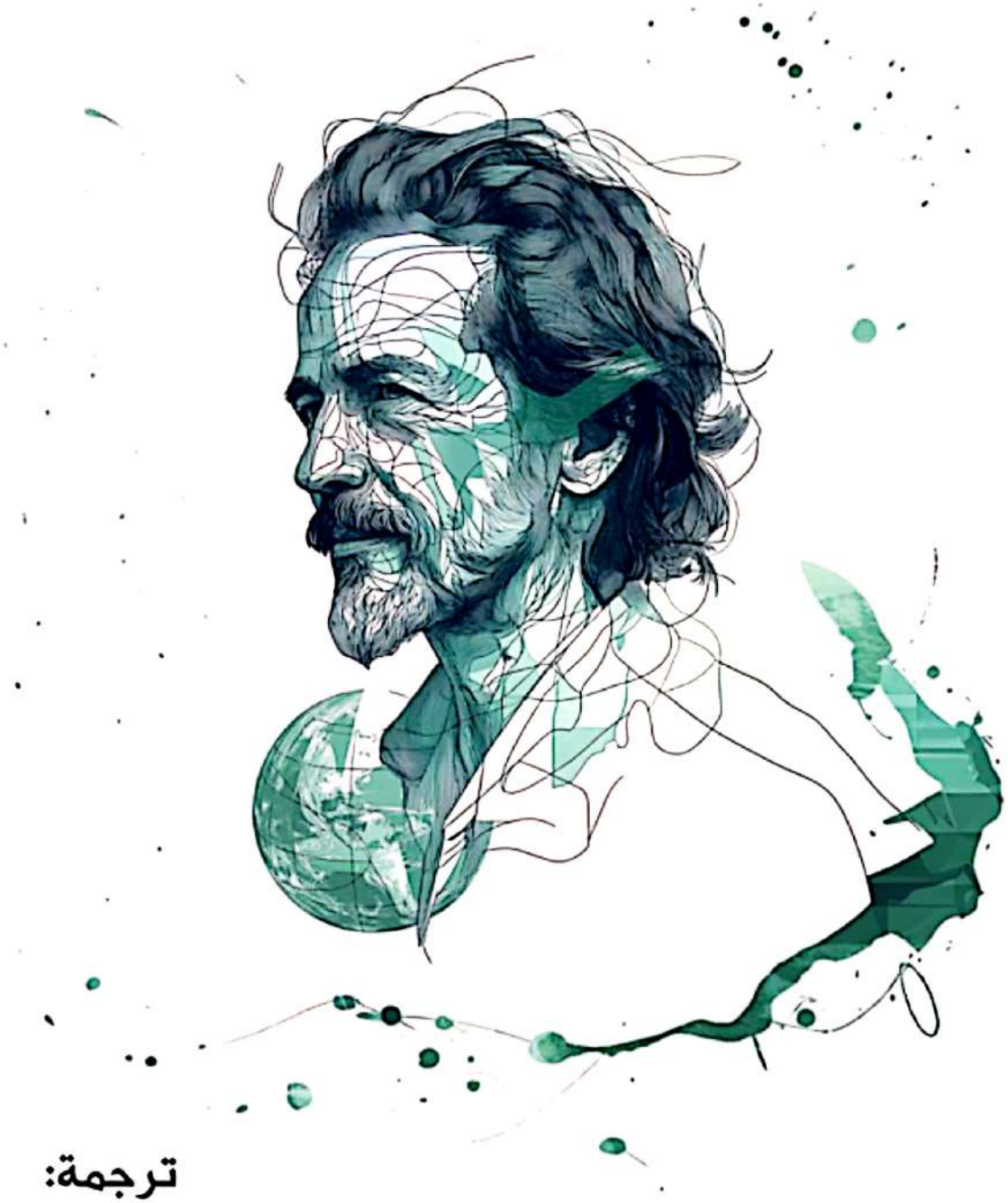

ترجمة:
أميرة الوصيف

هل عالمنا يهُم؟!
آلان واتس
ترجمة: أميرة الوصيف
منشورات سدرة
الموقع الإلكتروني:
www.sidrapublishing.com
البريد الإلكتروني:
Sidra.publisher@gmail.com
انستغرام:
@sidrapublishing
تويتر:
@sidrapublishing

ردمك: 978-9921-809-63-3

أحد أكثر الكتب مبيعًا في العالم

هل عالمنا يَهُم؟!

للمُفَكِّر والفيلسوف البريطاني الشهير

آلان واتس

مقالات حول علاقة الإنسان بالأشياءِ المادية

ترجمة: أميرة الوصيف

2024

قالوا عن هذا الكتاب

«تُدهشني كتابات آلان واتس، تجعلني في حيرةٍ من أمري. إنها أشبَه بناقوسِ يقظَة يُجبرني على الإفاقَة لأتدَبر كل هذا الجمال الكوني الهائل الذي يُحيط بي.»

ديباك شوبرا، طبيب أمريكي وأحد أكثر الكُتاب مبيعًا في العالم

«يأتي كتاب هل هذا يَهُم في مقدمة أبرز الكتب الفكرية التأملية الفلسفية التي يحتاجها أبناء عصرنا بقوة.»

جريدة التايمز الأمريكية

«كل حرف كتبه آلان واتس في هذا الكتاب المُلهِم هو بمثابة هدية للعالم كله.»

ذا أتلانتيك

«أثار هذا الكتاب جدلًا واسعًا منذ لحظة صدوره، كما أنه تصدر قوائم الكتب الأكثر مبيعًا، لا شك أنه أقرب إلى مُواجَهة حقيقية بين المرء وأفكاره ليكتشف في نهاية الكتاب أنه كان يتبنى أفكارًا خاطئة مُضَلِلَة معظم أيام حياته دون أن يشعُر.»

جريدة الديلي ميل البريطانية

«إذا أردت إعادة بَرمَجة عقلك على النحوِ السليم، فعليك بقراءة هذا الكتاب.»

باريس ريفيو

إهداء

إلى روبرت شابيرو

مقدمة

يتألف هذا الكتاب من مجموعة مقالات حديثة تدور حول العلاقة بين الإنسان والعالم المادي، تلك التي نُسميها الطبيعة أو البيئة الفيزيائية المادية أو الجسد أو المادة المحسوسَة. جدير بالذكر أنه عند استخدامي لتلك الكلمات، أُدرك على الفور أنها تحمل معاني فلسفية ومفاهيم مُجردَة، وكذلك الحال بالنسبة للمصطلحاتِ التي تخص «الواقع» فهي في حقيقة الأمر تحمل معاني عقلية أو روحية، ولهذا فإنني أحاول جاهدًا التَحدُث عن شيءٍ ما غير قابل للحديث بوجهٍ عام، والذي لا يمكن تقديمه إلا من خلال الكلمات والرموز فقط.

Telegram:@mbooks90

لقد عبر عالم اللغويات ألفريد كورزيبسكي عن ذلك بكلمة «غير اللفظي» كما أنه استخدم تورية ثُنائية المعنى بديعة مُشيرًا إلى ذلك المفهوم بقوله: «عالم لا يُوصَف».

يجدر بنا القول إن الواقع في حد ذاته ليس ماديًا أو روحيًا. إنه مسألة إدراك حِسي وليس مفهومًا قائمًا بذاته، إذ إن الجميع يعرفون جيدًا كيف بمقدور كل إنسان أن يتنفس دون أن يتوفر لديه الحد الأدنى من المعرفة بعلمِ وظائف الأعضاء.

إن الأمر يستقيم مع ما قاله القديس أوغسطين أسقُف هيبو عندما سُئِل عن طبيعة الزمن فقال:

«إنني أعرف جيدًا ما هو، ولكن عندما تسألني عنه أشعر وكأنني لا أعرف شيئًا على الإطلاق!»

لنفترض مثلًا (كما تعلمون عند تأليف كتاب ما يتعين على المرء أن يقول شيئًا ما) أن الواقع أو الوجود عبارة عن شيء مُتَعدد الأبعاد أو نظام مُتشابِك مُتداخِل لأطيافٍ متنوعة لعددٍ من الذبذبات وأن حواس الإنسان الخمس مُتناغِمَة فقط مع نطاقاتٍ صغيرة جدًا من تلك الأطياف، ذلك الأمر الذي يبدو لك في غايةِ العُمق مع أنه قد لا يحمل أي معنى على الإطلاق، ولكن عند القراءة على سبيل المثال، فإنه يجدر بالمرء الاهتمام فقط بصوت الكلمات بدلًا من النظر إلى معانيها، كذلك الأمر ذاته حتى تفهم ما أقصده.

إن المغزى الرئيس هنا أنني أحاول جاهدًا تركيز الانتباه على ما يحدث، بعيدًا عن تلك الطرق المُتعددة التي يتم استخدامها لوصفه سواء من خلال الكلمات أو الأرقام أو غيرها من الرموز الأخرى.

إن مرض الحضارة سواء أكان غربيًا أو شرقيا يتمثل في كوننا نمتلك الكثير من الأشياء الجيدة، إذ إننا نخلط بين الوصف الباهِر للأشياء وما يجري فعليًا على أرضِ الواقع، فنحن بذلك نخلط كذلك بين العالم بصورته التعريفية المُصَنّفَة ووضعه الحقيقي كما هو، فلو كنت أتحدث طيلة الوقت لما كنت مُنفَتِحًا على ما يقوله أي شخصٍ آخر، ولو كنت أيضًا أفكر (أو أتحدث إلى نفسي) طيلة الوقت، فلن يكون لديّ أي شيء لأفكر به سوى أفكاري تلك، وبهذا فإنني أملك وعيًا أقل فأقل بهذا العالم من حولي، وكذلك بنظامِ الاهتزازات التي تمثلها الكلمات والأفكار.

أنا لست شخصًا مُناهضًا للفِكر، فعلى أي حال أنا إنسان يكسب لُقمَة عيشه من خلال تحقيق عدة انتصارات ومآثِر في مجال التعبير اللفظي، لكنني أعتقد أننا لن نتمكن من حصد أية ثقافة إذا توجهنا إلى المحطة لنجد عُصارة الفِكر لا تشتمل

إلا على ما نُفكر به، وكذلك عندما نجد الكتب لا تتناول شيئًا آخر سوى ما تناولته الكُتب الأخرى!

ولهذا السبب على وجه التحديد يُذهلني ذلك القدر الهائل من الأعمال السخيفة التي تنتمي للتيار الفكري والفلسفي وحتى الخطابات العلمية.

إنها محاولة بائسة لترجمة نظام مُتعدد الأبعاد غير خطي إلى نظام رموز خطي (سواء أكان يعتمد على حروف الهجاء أو الرياضيات)، هذا الأمر الذي لا يمكن تحقيقه.

إن المسألة أشبَه بمحاولة نقل المحيط الأطلسي إلى المحيط الهادئ من خلال كوب جِعَة، فبغض النظر عن سرعة وآلية وتلقائية تلك العملية إلا أنها قد تكون عقيمة غير مُجدية.

منذ مدة زمنية ليست طويلة صرح أستاذ بجامعة هارفارد -في إطار التعليق على فضيحة أستاذ علم النفس الدكتور تيموثي ليري وقضيته الشهيرة التي تخص تغيير الوعي من خلال تناول العقاقير المُخدِرَة- أنه لا يمكننا احترام وتقدير أية معرفة فكرية أو أكاديمية غير قابلة للصياغَة في هيئة كلمات!

وا أسفاه إذن على أحوال أقسامِ الموسيقى والفن والرقص والتعليم البدني! فالمشكلة هنا هي أن الأشخاص المُتعلمين والمُتحضرين لا يفهمون أن أدمغتهم أكثر ذكاء من عقولهم، باعتبارِ العقل مسؤولًا عن النظام الإجمالي للقواعد اللفظية والرياضية والرمزية التي نتواصل من خلالها، وكذلك تلك التي تساعدنا على حفظ المعلومات.

إن أطباء الأعصاب هم أول مَن اعترفوا أن علمهم غير قادر على فهم الجهاز العصبي بأي طريقة من الطرق، مما يُفيد أن الدماغ أكثر تنظيمًا وتعقيدًا من معلوماتنا الخطية الرمزية بشأنه، فعازِف الأرغن المُتدَرِب يمكنه الاحتفاظ بخمسة ألحان ونغمات مختلفة بداخل عقله في آنٍ واحد، مما يُعادل نغمة واحدة لكل يَد وكل قدم، ومع ذلك فإن حتى أكثر الناس ذكاء يعجزون عن التعامل مع خمسة أو ستة أو سبعة مُتغيرات في نفس الوقت، لكن الجهاز العصبي الذي يقوم بتنظيم كافة وظائف الجسم يتعامل مع آلاف المُتغيرات في آنٍ واحد، وذلك لأن الدماغ يعمل بصورةٍ ذكية دون الحاجة ليتوقف للتفكير، وبناءً عليه فإن كل شخص عبقري يتعذر عليه أن يشرح كيف بإمكانه أن يرسم أو يرقص أو يرمي الكُرَة، يقوم بدوره باستخدام دماغه بدلًا من عقله.

انظر -على سبيل المثال- إلى تلك الاختلافات بين الموسيقى الهندوسية والغربية الكلاسيكية، فنحن نبدأ بتَعَلُم كيفية قراءة نظام الترميز الذي يحد قدراتنا إلى نطاقِ الاثنتي عشرة نغمة، وكذلك نظام النبضات الإيقاعية.

إن التقليد العام لموسيقانا - تلك التي تنتقل عبر نظام الترميز- يغلب عليه عامل الثقافة، فجميع أغنياتنا حتى تلك الأغاني العاطفية البسيطة تبدو للشرقيين كما موسيقى المسيرة العسكرية، بينما يستخدم الهندوس نظام الترميز بطريقةٍ بسيطةٍ جدًا في هذا المجال تمامًا كما الحال في الأغنية الفرنسية «مفكرة دبلوماسية»، فإنهم يستخدمون هذا الأسلوب في أنماطٍ غنائية معينة، فالإنسان يتعلم الموسيقى من خلال مُتابعة أداء معلمه، ومُحاكاة حركة عضلاته وأعصابه عند تفاعلها مع الخيط أو القصبَة أو الطبلة، وكنتيجة لذلك هناك لحظات من النشوة عند الاستماع للموسيقى الهندوسية والتي تشعر خلالها

وكأنك تُصغي إلى نداء الرب.

وبناءً على ما سَبق فإن النقطة التي أرغب في توضيحها من خلال تلك المقالات هي أن الناس المُتحضرين سواء أكانوا من الشرقِ أو من الغرب بحاجةٍ ماسةٍ لأن يتخلصوا ويتحرروا من أنظمةِ الرموز الخاصة بهم، وحينها فقط سوف يصبحون أشد وعيًا بالذبذباتِ الحية للعالم الحقيقي.

إن الافتقار لتلك الدرجة من الوعي هو ما يجعل وعينا وضميرنا أشد تصلبًا وقسوة في تناول الفظائع اليومية المتمثلة في حرق الأطفال بقذائفِ النابالم، والقصف الشامل لتربة الأرض الخصبة ونباتاتها وحيواناتها البرية وحشراتها (ناهيك عن الناس) وتصنيع المتفجرات النووية الذرية والأسلحة الكيميائية، فالمشكلة الحقيقية هنا لا تتعلق بتقليل كمية استخدامنا لتلك الأسلحة، وإنما تتعلق بكيفية منع وجودها على الأرض.

نحن بحاجة لأن نكون أكثر وعيًا ببيئتنا وترابطنا وهويتنا الافتراضية وكافة أشكال الحياة الأخرى، تلك التي تمنعنا طرق تفكيرنا المُشَتتَة المُجزأة من اختبارها، فما نُسميه بالعالم المادي وما نُطلِق عليه اسم الجسد البشري عملية واحدة فقط لا يفصل بينها سوى مسافة كتلك التي تفصل القلب عن الرئتين أو الرأس عن القدم.

إنني أشير إلى هذا النوع من الفهم بداخل الأوساط الأكاديمية المُملة باسم «الوعي البيئي» بينما يُطلَق عليه في أي مكانٍ آخر اسم «الوعي الكوني» أو «التجربة الصوفية»، وعلى أي حال فإن نظامنا الفكري والعلمي مُحاصَر دائمًا بتلك الأسطورة التي تقول إن الذكاء البشري والشعور الإنساني ما هو إلا صنيعة

الصُدفة العبثية بداخل كونٍ ميكانيكي غبي تمامًا كما لو قلنا أنه بإمكان فاكهة التين أن تنمو فوق الصبار أو أنه باستطاعة العنب أن ينمو فوق الأشواك، ولكن ألن يكون من المنطقي أكثر أن ننظر إلى المُخَطط بأسره بشكلٍ مُتناغِم مع وعينا الخاص، وكذلك الحال بالنسبة لهذا التنظيم العصبي الرائع الذي يرعاه؟

فالأمور الميتافيزيقية تبدو بالنسبة لي قضايا مادية تطبيقية ملموسة، إذ إن هذا المفهوم الذي أخطأنا في تسميته بالحضارة المادية، يجب أن يسمو على حُب المادة ذاتها أو الأرض أو الهواء والماء والجبال والغابات والطعام الجيد والمنازل الخيالية والثياب الغالية. ينبغي أن يسمو مفهوم الحضارة المادية كذلك على لذة الاتصال الجسدي بين البشر.

بالطبع إن تلك الأشياء المزعومَة هي زائلة غير أبدية تمامًا كما تموجاتِ الماء، ولكن ما هي طبيعة تلك الحياة أو الحب أو الطاقة التي قد تتواجد في صخرة مُجردَة صلبة راسخة غير قابلة للتدمير؟

أعتقد أنه يتعين عليّ إضافة تلك الفكرة، فحتى تلك الكلمة على وجه التحديد المعروفة باسم «صخرة» يمكنها أن تعود إلى الحياة إذا قمنا باستخدامها في عددٍ من التعبيراتِ اللغوية المختلفة، فأن تقوم بشَق صخرة ما يعني أن تقوم بعمليتي الانقسام والتماسُك، وأن تشرع في القيام بشيءٍ ما يعني أن تعد خطة واضحة مُحَددَة لإنجازه.

يجدر بي الإشارة أن تلك المقالات الواردة لاحقًا قد كُتِبَت بشكلٍ مُستَقِلٍ تام، وبناءً عليه فإنني أثق أن القارئ سوف يغفر لي بعض الأفكار المُكَررة، على الرغم من حرصي الكامل على صياغتها بشكلٍ مُختلف تمامًا عن بعضها البعض، أما

مقالتي «الثراء مقابل المال» و «جريمة في المطبخ» فقد أضفت لهما مادة جديدة وقمت بكتابتهما لصالح مجلة شهيرة تنشر عددًا من الأفكار الفلسفية المُثيرة في أمريكا، ولهذا فإنها تقوم بكشف كواليس الحياة الثقافية لملايين القراء في العالم، كما أن مقال «روح العُنف ومسألة السلام» قد كُتِب خصيصًا لجريدة «بدائل العنف» التي يُحَررها طبيب الأعصاب الدكتور لاري نيغ ونُشِرَت عن طريق لايف تايم بوكس، كما أن مقال «العقاقير المُخدرة والتجربة الصوفية» قد كتبته بناءً على طلب من مجلة كاليفورنيا ريفيو لعدد يناير لعام 1968 المُخَصص لمُعالجة المشاكل القانونية الاعتبارية الناجمة عن تناول المواد المُخدرة، كما أنني قمت بتقديمها كمحاضرة في الجمعية الطبية لولاية إلينوي، أضِف إلى ذلك كافة تلك المقالات باستثناء واحدة قد نُشِرَت -للمرة الأولى- تحت عنوان «سبع مقالات قصيرة» في النشرة المجتمعية لعلم النفس المُقارن، وكذلك مقالتي «الأسطورة الكبيرة» و«روح الماندلا العظيمة أو فن البهجة» التي نُشرت -في وقتٍ لاحق- في مجلة سان فرانسيسكو، وكذلك أيضًا نشرتها مؤسسة صحفية ناشئة في ذكرى صاحبها دي تي سوزوكي تكريمًا لذكراه من جانب الجمعية البوذية الشرقية في كيوتو، كذلك كتبت مقال «الفن» كمقدمة لكتالوج معرض إلكتروني فني تم تنظيمه من جانب أوليفر أندرو، أستاذ فن النحت بجامعة كاليفورنيا بولاية لوس أنجلوس.

آلان واتس

سوساليتو، كاليفورنيا

مايو، 1969

الثراء مقابل المال

في سنة 2000 من ميلاد السيد المسيح لن يعود للولايات المتحدة الأمريكية وجود، وهذه ليست نبوءة مُستوحاة من جهةٍ خارقةٍ للطبيعة، لكنها مجرد تخمين منطقي إلى حدٍ ما، فاسم الولايات المتحدة الأمريكية حينها قد يعني شيئين مختلفين تمامًا: أما الشيء الأول فيُقصَد به منطقة مادية مُحددة والتي تعتمد بشكلٍ رئيس على قارةِ أمريكا الشمالية لتشمل كل السمات الجغرافية والبيولوجية مثل البحيرات، والجبال والأنهار والسموات والسُحب والنباتات والحيوانات والناس، وأما المعنى الثاني فيُقصَد به تلك الدولة السياسية ذات السيادة التي تحيا في حالة مُنافسَة مع دول أخرى ذات سيادة أيضًا ليُصارع أحدهما الآخر على سطح هذا الكوكب، ولهذا يجدر بنا القول إن المعنى الأول يُشير إلى مفهوم مادي ملموس، بينما يُشير المعنى الثاني إلى مفهوم نظري مُجَرّد.

فإذا استمرت الولايات المتحدة الأمريكية في التواجد في ضوء المعنى الثاني المُشار إليه، فهذا يعني أن وجودها في ضوء المعنى الأول سوف ينتهي بدوره، فمن السهل جدًا الآن تدمير حياة الأرض وما عليها من خلال اتباع تلك الأساليب المُفاجئة والكارثية للحروب النووية والبيولوجية أو من خلال خلق مزيج من تلك الوسائل الزاحفة الخبيثة مثل الزيادة السكانية، وتلوث الغلاف الجوي وتلوث المياه وتآكل مواردنا الطبيعية عبر التطبيق الجنوني للتكنولوجيا، وحتى نُحسِن التقدير علينا إضافة احتمالات الحرب الأهلية والعرقية والاختناق الذاتي للمدن السكانية الكبيرة وانهيار وسائل النقل الرئيسة وشبكات الاتصالات، وبهذا ستكون تلك هي نهاية الولايات المتحدة الأمريكية بكل ما تحمله الكلمة من

معنى.

وربما سيكون هناك احتمالية طفيفة لممارستنا لأمور السياسة المُجردة في العالم الآخر، فحينها قد نستمتع بتلك العبارة القائلة «أن نكون موتى أفضل من أن نرى لون الدماء الحمراء مرةً أخرى.» هناك حيث يتمتع الرب بسلطته الكاملة، إذا يصبح بمقدورنا أن نقول لأعدائنا الذين تتلوى أجسادهم في حرارةِ نار الجحيم: «لقد قُلنا لكم ذلك!»

ففي تلك الأرض التي تغمرها الآمال والقيم، قد تجد شخصا ما يضغط على الزِر الأحمر الكبير ليُدَمِر هذا الاعتقاد القائل بأن الإيمان بروحيةِ الخلود أمر غير مُتَسِق مع البقاء الجسدي المادي، ومن حُسن حظنا أن أعداءنا الماركسيين لا يؤمنون بأي وجود لتلك الحياة الأخرى.

جدير بالذكر أنه كلما رغبت في إجراء وتقديم تنبؤات لوجهة نظر واقعية ناضجة، فإنني أميل إلى تبني وجهة النظر التشاؤمية القاتمة حول الأشياء، فكافة المُرشحين الذي أقوم باختيارهم لم يحققوا أي فوز في الانتخابات التي أدليت فيها بصوتي، وبناءً على ذلك فإني أميل للشعور بأن السياسة التطبيقية تفترض أن معظم الناس إما مجرد أشخاص مُثيرين للجدل أو خُبثاء أو أغبياء، إذ إن قراراتهم تتسم بقِصَر النظر والقدرة على التدمير الذاتي.

ففي كل الاحتمالات سوف يفشل الجنس البشري في التجربة البيولوجية وسوف يسلك بدوره طريقًا سهلًا يفضي إلى الموت، فلو كان باستطاعتي لراهنت على ذلك، فقط لو كان لديّ مكان لوضع المال الكافي لهذا الرهان، لكن لا يوجد أي مكان مُلائم لوضع هذا الرهان المُتعَلّق بمصيرِ البشرية، كذلك ليس

هناك سبيل للوقوف خارج تلك المحطة الهامة والنظر إليها بصفتي مُراقِب مُحايد يقوم بإجراء حساباته الخاصة بدمٍ بارد وبغرضٍ موضوعي، فأنا مَعني بتلك المحطة ومُتَصِل بها، ولهذا فإن القلق يُساورني بشأنها ولأنني أحد المُصابين بلعنةِ القلق ممَن يخشون خروج الأشياء كما هي بصورتها الأولى فقط لأنهم يُراهنون عليها!

وعلى أي حال، فهناك احتمالية أخرى لعام 2000 ميلادي، والتي تتطلب أن نركز عقولنا على الحقائق الفيزيائية المادية وألا نُبالي نسبيّا بالولايات المتحدة الأمريكية باعتبارها كيانًا سياسيًا مُجردًا، فمن خلال تجاهُل الأمَة ذاتها يمكننا صب تركيزنا الكامل على المنطقة الحقيقية والتي تشمل أرضها ومياهها وغاباتها وأزهارها ومحاصيلها وحيواناتها وأُناسها وأن نخلق بتكلفةٍ أقل ومُعاناة أدنى من تلك التي نتحملها في عام 1968 تجربة بيولوجية مُفعمة بالحياة مُمتعة شاملة.

قد تكون الفرص ضئيلة، فمنذ مدةٍ ليست بطويلة قام الكونجرس بالتصويت على فرض عقوبات على أي شخص يُحاول حرق علم الولايات المتحدة الأمريكية، مع أن أعضاء هذا الكونجرس ذاته ممَن قاموا بإصدار هذا القانون هم المسؤولون -سواء عن طريق ارتكاب الفعل أو الإهمال- عن أفعال الحرق والتلوث ونَهب الأرض التي يُفترض أن يُمثلها ذلك العلم!

لقد جسدوا بدورهم تلك المُفارَقَة الغريبة والمُغالَطَة القاتلة للحضارة وخلط الرمز بالواقع، فالحضارة تضم كل إنجازات الفن والعلم والتكنولوجيا والصناعة، فهي نِتاج اختراع الإنسان، كما أنها حصاد استغلال الرموز والتَلاعُب بالكلمات والحروف والأرقام والصيغ والمفاهيم وغيرها من التنظيمات الاجتماعية المعروفَة عالميًا بالساعاتِ والقواعد و المقاييس والجداول الزمنية والقوانين،

فمن خلال تلك الوسائل يمكننا القياس والتنبؤ والتحكم في السلوك البشري والعوالم الطبيعية، ففي ظل هذا النجاح الباهِر المُذهل تُسيطر البراعَة على رؤوسنا.

إننا نخلط بكل سهولة بين صورة هذا العالم الذي نرمز إليه وهذا العالم الواقعي كما هو على أرضِ الواقع، فكما اعتاد العالم اللغوي ألفريد كورزبيسكي أن يقول إنها ضرورة مُلِحّة للتمييز بين الخريطة والمنطقة ذاتها، وكان بمقدوره أن يُضيف أيضًا أنها ضرورة للتمييز بين العلم والدولة أيضًا.

دعوني أوضح تلك النقطة، وفي الوقت ذاته أن أشرح العقبة الرئيسة التي تقف أمام التطور التكنولوجي العقلاني من خلال التفكير في هذا الخلط الرئيس بين الثراء والمال.

هل تتذكرون أزمة الكساد الكبير خلال مرحلة الثلاثينيات؟

ذات يوم، كان هناك اقتصاد استهلاكي مُزدهر يواصل الصعود ثم فجأة ظهرت أزمات البطالة أو الفقر وطوابير الخبز. والسؤال ماذا حدث؟

تتمثل الإجابة في أن موارد البلد المادية والتي تعد بمثابة الدماغ والقوة العضلية والمواد الأولية كانت قد أُستِنفدت، ومن ثَم فقد شهدت البلاد حالة غياب مُفاجئ للمال والتي عُرِفَت باسم «الركود المالي»، هناك المزيد من الأسباب المُعقدة لهذا النوع من الكوارث التي يمكن أن يتحدث عنها خُبراء البنوك المصرفية والموارد المالية باستفاضَة، فالمسألة بحاجة لأهل الخبرة ممَن يتمكنون من الحُكم عليها جيدًا منذ النظرةِ الأولى.

لكن الأمر أشبه بقدوم شخص ما للعمل على بناء منزل، وفي صباح يوم الكساد باغته مُديره قائلًا:

المعذرة يا عزيزي لا يُمكننا البناء اليوم. فنحن لا نملك بوصَة!

«ماذا؟ ما الذي يعنيه أننا لا نملك بوصَة؟» فنحن نمتلك الأخشاب والمعدن وأشرطة القياس.

أجل، لكنك لا تفهم آلية العمل، فلقد كنا نستخدم أيضًا البوصَة، ولم يعد هناك المزيد منها.

بعد مرور بضع سنواتٍ لاحقة، كان الناس يقولون إن ألمانيا غير قادرة على تجهيز وإعداد جيش كبير لتتمكن من شَن الحرب لأنها لا تمتلك الكثير من الذهب.

جدير بالذكر أن هذا الشيء الذي لم يتمكن أحد من فهمه حينها، وكذلك لا يزال غير مفهوم في وقتنا الراهن هو أن طبيعة المال وحقيقته تمامًا كحقيقة السنتيمترات والجرامات والساعات أو خطوط الطول، فالمال وسيلة لقياس الثراء لكنه ليس الثراء بحد ذاته، إذ إن صندوقًا من العملات الذهبية أو محفظة تكتظ بالأموال الورقية هي شيء غير مُجدٍ بالنسبة لبحارٍ مُحطم متروك بقاربه وحده. إنه بحاجةٍ ماسة إلى صورة ثراء حقيقية كأن يمتلك صنارة صيد أو بوصلة أو مُحرك غاز خارجي أو رفيقة حسناء.

يعد هذا الخلط الراسِخ القديم بين المال والثراء بمثابة السبب الجوهري لكوننا لا نمضي قُدمًا بكامل طاقتنا لتطوير عبقريتنا التكنولوجية من أجل إنتاج

ما هو أكثر من الطعام والثياب والمسكَن وكافة الخدمات والمرافِق لكل إنسان على هذه الأرض. يمكن القيام بذلك فيما يتعلق بالإلكترونيات وأجهزة الحاسوب وتقنيات التشغيل الآلي وغيرها من الطرق الميكانيكية للإنتاج الضخم وحينها من المُحتَمل أن ينقلنا إلى عصرِ الوفرة التي تصبح فيها أيدولوجياتنا السياسية والاقتصادية الماضية سواء أكانت يسارية أو وسطية أو يمينية مجرد أفكار قديمة عفا عليها الزمن ببساطة.

لم يعد هناك شك بعد الآن في تلك الأفكار الاشتراكية القديمة والمُخططات الشيوعية التي تنشد سرقة الأغنياء من أجل دفع المال للفقراء أو تدبير طريقة توزيع مالية لهذا الثراء تبعًا للطقوسِ الشعائرية أو الضرائب المُرهِقَة السخيفة.

فلو أننا نتمكن من التفكير في مسألة المال بشكلٍ سليم، فإنني أتنبأ حينها أننا بحلول عام 2000 الميلادي أو أقرب من هذا التاريخ لن نضطر إلى دفع أي ضرائب، حينها لن يحمل أي شخص العملات النقدية، وسوف تصبح المرافِق والخدمات العامة مجانية للجميع، وعندها سوف يحمل كل شخص بطاقة ائتمانية فحسب، تلك البطاقة التي ستكون صالحة للجميع للمشاركة الفردية في إطار دخل أساسي مضمون أو دخل قومي، كما أنها سوف تصدر مجانًا، مع إمكانية أن يُتاح لأي شخص أن يكسب أي شيء يرغب به سواء من خلال امتهانه لفن أو حرفة أو مهنة أو تجارة لم يتم استبدالها بنظامِ التشغيل الآلي (من أجل الحصول على معلوماتٍ تفصيلية بخصوص آليات هذا الاقتصاد يمكن للقارئ الرجوع إلى كتاب روبرت ثيوبالد «تحدي الوفرة والرجال الأحرار والأسواق الحُرّة» وكذلك يجدر بالقارئ الاطلاع على مقالاته المُعَنونَة باسم «الدخل المضمون»).

يعد روبرت ثيوبالد خبيرًا اقتصاديًا تقدميًا بارزًا والذي يعمل ضمن طاقم التدريس في جامعة كولومبيا.

بطبيعة الحال، تتسبب تلك المُقترحات الجريئة الصارخة في إعلاء صوت تلك الأصوات القديمة المألوفة التي تتساءل:

« ولكن من أين سيأتي هذا المال؟» أو «مَن سيدفع الفواتير؟»

لكن المقصد هنا أن المال لم ولن يأتي من أي مكان، تمامًا كما لو كان شيئًا ما مثل الخشب والحديد والطاقة الكهرومائية، فالمال هو وسيلة لقياس الثراء، ونحن مَن قمنا باختراعه تمامًا كما قمنا باختراع مقياس فهرنهايت لقياس درجة الحرارة، ومقاس الوزن، فعندما تكتشف حمولة من الحديد وتعثر عليها في مكانٍ ما، فإنك حينها لست بحاجة إلى آلاف الأطنان قبل أن تعرف ما بمقدورك فعله بها، وعلى نقيض المال، فإن الثراء الحقيقي هو حصيلة الطاقة والذكاء التقني والمواد الخام، فالذهب ذاته يعد صورة من صور الثراء إذا تم استخدامه في أغراضٍ عملية تطبيقية فقط مثل حشو الأسنان.

أما إذا أُستِخدم الذهب من أجل المال، فإننا نقوم حينها باحتجازه بداخل الخزائن والأقبية والسراديب والقلاع المُحَصَنَة، في تلك اللحظة المُحَددة، يصبح فيها مَعدوم النَفع والجدوى لتحقيق أي شيءٍ آخر، الأمر الذي يجعله خارجًا عن التداول بصفته شكلًا من أشكالِ المواد الخام أو صورة من صور الثروة الحقيقية. فإذا كان حريًا بالمال أن يتواجد في هيئة الذهب أو الفضة أو القروش، فإنه يجدر بقيمة التوسع والتوزيع الخاصة بالثروة الهائلة المتمثلة في القمح والطيور الداجنة والقطن والخضراوات والزبد والنبيذ والسمك أو القهوة أن تنتظر حتى

نصل إلى اكتشاف جديد لمناجم الذهب قبل أن تتمكن بدورها من المُتابَعة والمُضي قُدُمًا.

تلك المُعضلة الواضحة المُثيرة للسخرية التي تم التحايل عليها من خلال زيادة الدين الوطني -تلك التي تمثل شكلًا ملتويًا من أشكالِ النزعة الظلامية التشاؤمية- ومن خلالها تحصل الدولة على قرض لنفسها أو تقوم بالقوة الشرائية التي لا تعتمد على المعادن الثمينة، وإنما على صورة من صور الثروة الحقيقية المتجسدة في مُنتجات ومواد وطاقة ميكانيكية، ولأن الدين الوطني يتجاوز احتياطات الفرد من الذهب أو الفضة، فإنه من المفترض بوجهٍ عام أن الدولة التي تُعاني من دين وطني ضخم هي من تُنفِق أكثر من معدلات دخلها الخاص، كما أنها تمضي -بخُطى واثقة- نحو طريق الفقر والدمار بغض النظر عن مدى ضخامة إمداداتها من الطاقة والموارد المالية، فهذا الأمر هو ما يُمثِل الارتباك الجوهري بين الرمز والواقع، كما أنه ينطوي هنا على أثر السِحر السيئ لكلمة «دين» والتي تُفهَم على النحوِ الدارج في تلك العبارة القائلة «الوقوع في الدين»، لكنه من المُفترَض أن يُطلَق على الدين الوطني اسم «الائتمان الوطني»، فمن خلال إصدار بطاقة ائتمانية وطنية قومية أو عامة يتمكن مجتمع معين من السُكان من منح نفسه القوة الشرائية، تلك التي تعد وسيلة توزيع جيدة لسلع هذا المجتمع وخدماته الفعلية والتي تتفوق قيمتها كثيرًا على أي كمية من المعادن الثمينة.

تذكروا دائمًا أنني أكتب عن تلك الأشياء باعتباري فيلسوفًا متواضعًا وليس بصفتي خبير مالي أو اقتصادي يُسهِب بحديثه عن الحقائق والأرقام، لكن دور الفيلسوف هنا هو أن ينظر إلى الأمور من وجهة نظر الطفل في حكاية الكاتب

هانز كريستيان أندرسون «ملابس الإمبراطور الجديدة»، إذ إن الفيلسوف هنا يحاول جاهدًا أن يصل إلى المبادئ الأساسية البسيطة، فهو يرى الناس يُهدرون الثروات المادية أو يتركونها تتعفن أو يقومون بتكديسها دون فائدة نظرًا لقلة تلك الأوراق المُجَردَة التي تُعرَف باسم الدولارات أو الجنيهات أو الفرنكات!

انطلاقًا من القاعدة الرئيسة على وجهِ التحديد، أو من وجهة النظر الطفولية السابقة الذكر التي أتحدث عنها، يمكنني القول إننا قد قمنا بخلق قاعدة تكنولوجية هائلة لعرض السلع والإمدادات الخاصة بنا بأقل حد ممكن من الجُهد والكَدح البشري.

أليس من الواضح أن الغرض الكُلي للآلات هو التخلص من فكرة العمل ذاتها؟ فعندما تنتهي من العمل المطلوب اللازم لإنتاج الأشياء الضرورية الأساسية، فإنك تمتلك فائضًا ووقت فراغ لكي تحظى بالمُتعَة والتسلية وحتى تقوم باكتشافات إبداعية جديدة ومغامرات، ولكن في ظل وجود سمة العمى تلك التي يتسم بها أولئك الذين لا يقدرون على التمييز بين الرمز والواقع، فإننا نسمح لتلك الآلات بإخراج الناس من العمل- فالمسألة هنا لا تتمثل في أن ينعم هؤلاء الأشخاص بوقت فراغ وإنما يعيشون بدورهم حالة فقر ويشعرون حينها باضطرارهم لقبول تلك الصدقةِ البائسة من الجمعيات الخيرية والمجتمع العام، وبناءً عليه فكلما امتدت حالة الترشيد والاستخدام الآلي الأتوماتيكي للصناعة كلما قمنا بإلغاء فكرة استعباد البشر، ولكن مع تجريم ومُعاقَبة أولئك العبيد المُشَردين النازحين وفي ظل منع هؤلاء الأشخاص من امتلاك قوتهم الشرائية، فإن الشركات المُصَنِّعَة ذاتها سوف تحرم نفسها من وجود منافذ وأسواق للترويج لمنتجاتها، فكلما أنتجت الآلات الكثير والكثير، كلما كان معدل إنتاج البشر أقل، وحينها

سوف تتكدس المنتجات فوق بعضها البعض دون توزيع ودون أن يستهلكها أحد، لأن قِلّة من الناس هم مَن يربحون المال، ولأن الشخص الأكثر جوعًا والأشد طمعًا وحتى الرأسمالي الأشرس لا يمكنه استهلاك عشرة أرطال من الزبد يوميًا.

يتعين على كل طفل أن يفهم أن المال ما هو إلا وسيلة للقضاء على نظام المُقايضة، لذلك فأنت لست مُضطرًا للذهاب إلى السوق وبرفقتك سِلال من البيض أو أكواب الجِعَة حتى تُقايضها باللحم والخضروات، ولكن إذا كان كل ما عليك فعله هو أن تشرع في مُقايضَة طاقتك الذهنية والبدنية في العمل فهذا الأمر قد انتهى بفعل وجود الآلات، والمشكلة التي ستجدها حينها هي المتمثلة في ذلك السؤال القائل: ما الذي ستفعله إذن من أجل كسب لُقمَة العيش؟ وكيف ستتمكن الشركاتِ المُصَنعة من إيجاد زبائن للعشراتِ من أطنانِ الزبد والنقانق؟

إن الحل المنطقي الوحيد هنا للمجتمع ككل هو أن يتم إصدار بطاقة ائتمانية والتي تُعادل بدورها المال والتي تتواجد لقاء هذا العمل الذي تقوم به الآلات، الأمر الذي سوف يُمَكّن مُنتجات الشركات والأفراد من التوزيع بشكلٍ عادل، كما أنه يعد الوسيلة الأمثل لدفع رواتب المُديرين وأصحاب الأعمال، ولهذا يمكنهم الاستثمار في الحصول على آلاتٍ أكبر وأفضل، وخلال تلك المدة سوف تأتي تلك الثروة الزائدة من طاقةِ الآلات وليس من خلال المُعالجات الشعائرية للذهب.

لقد قمنا بذلك في بعض الأحيان، فما فعلناه كان بمثابة إحدى محاولات التدمير الذاتي لأنفسنا، من خلال الإقبال على شراء محركاتِ الحرب، ويمكننا القول إنه بمقدور قاعدتنا التكنولوجية الحالية تعويض ما فقدته دول العالم منذ حرب 1914، إذ إنه بمقدورها أن توفر لكل شخص على هذه الأرض دخلًا مُريحًا مُستقلًا، ولكن لأننا خلطنا بين الثراء والمال، فقد خلطنا بدورنا أيضًا بين إقراض

أنفسنا والوقوع في فخ الدين، فلا يتعين على أي شخص الوقوع في هذا الفخ إلا في حالاتِ الطوارئ، وبناء على ذلك فإن تحقيق الرفاهية يعتمد على إبقاء حالة حرب طارئة دائمة.

لقد تقلصنا نتيجةً لذلك، وأصبحنا أشبَه بأشخاصٍ انتحاريين حصيلة تلك الحروب المُختَرعَة، بدلًا من أن نستغل هذا الوقت ونقوم باختراع المال، مع العلم أن تلك الكميات المُختَرعَة من المال كانت دائمًا غير مُتناسبة مع قيمة الثروة الحقيقية المُنتَجَة، وبناءً على ما سبق فإنه يجدر بنا استبدال معيارِ الذهب بمعيارِ الثراء.

تكمن الصعوبة في تلك المعتقدات الخرافية الراهنة التي تخص مسألة أن يكون للمرء الواحد دخل أساسي مضمون سنويًا، وليكن حوالي 10000 دولار على سبيل المثال، فتلك الآراء التي تقف ضد هذه الفكرة تخشى بشدة حدوث ما يُعرَف بالتَضَخُم الهائل، فحينها سوف ترتفع الأسعار بشكل كبير لمحاولة اختطاف قدرٍ أكبر من الأموالِ الجديدة، وحينها أيضًا سوف يصبح الفرد فقيرًا ولن يكفيه مبلغ 10000 دولار سنويًا.

جدير بالذكر أن الباعة الثعساء المُنَومين مغناطيسيًا بقوةِ الدولار لا يدركون أنهم كلما قاموا برفع الأسعار كلما فقد هذا المال المُكتَسَب قيمته وقوته الشرائية، وهذا هو السبب الحقيقي في نمو الثروة المادية شيئًا فشيئًا، إذ إن قيمة الأوراق النقدية (سواء أكان الدولار أو الجنية) تقل تدريجيًا، ولذلك فإنه يجدر بك أن تتحرك أسرع فأسرع لتبقى في مكانك بدلًا من أن تسمح للآلات بالتحرك من أجلك! فإذا انتقلنا من مرحلة «معيار الذهب» إلى «معيار الثراء» سوف تبقى الأسعار أكثر أو أقل حيث كانت عند تسجيل مرحلة الانتقال تلك، وفجأة وبشكلٍ

إعجازي سوف يكتشف كل شخص أنه يمتلك الحد الذي يكفيه أو أكثر مما يجعله قادرًا على ارتداء الثياب وتناول الطعام والشراب والنجاة بثراءٍ وسعادة.

لن يكون من السهل أن نشرح ذلك للعالم أجمَع، فعلاقة البشرية بالنُدرَة المادية قائمة منذ مليون عام، كما أن علاقتها بالثورة الصناعية بدأت منذ حوالي مائة عام فقط، فكما هو أمر صعب جدًا أن تقنع الناس أن الأرض مُستديرة وأنها تدور حول الشمس أو أن توضح أن الكون يوجد في مُنحنى دائم يُعرَف باسم الزمكان، فقد يكون من الصعب أيضًا أن نصل إلى منطق فطري سليم عقلاني يقول إن مزايا جني الأموال وتوفيرها باتت أمورًا قديمة عفا عليها الزمن.

قد يتعين على مُذيعي البرامج التليفزيونية ممَن يكتسبون المظهر العلمي ويرتدون النظارات والمعاطف البيضاء الإدلاء بتلك المعلومات، أو ربما قد يجدر بالمسؤولين نشرها في ملايين النسخ من المجلات المُصَورة المُتخصصة، فسيكون من الممكن دائمًا لأي شخص راغب تحقيق ربح أكبر من الدخل الرئيس المضمون لتلبية ذلك الغرض، ولكن عندما يُدرك الناس بصورة أوضح أن المال لا يمثل الثراء سيعرفون حينها أن هناك حدودًا لهذا الثراء الحقيقي والتي يمكن لأي فرد تجاوزها.

ربما يمكنني اعتماد فكرة الخبير الاقتصادي الألماني سيلفيو جيسيل الذي قال إن المال غير المُتداوَل قابِل للتَلَف تدريجيًا، كما أنه يفقد قيمته منذ تاريخ إصداره، وبذلك فإن إغراء جمع المال والثروة وتكديسها سوف يتضاءل ما دام قد بات واضحًا أن التكنولوجيا تعمل على إبقاء الإمدادات قادمة، إذ إنه ليس باستطاعتك أن تقود أربع سيارات في نفس الوقت، كذلك لا يمكنك أن تعيش في ستة منازل في آنٍ واحد أو أن تقوم بثلاث جولات في نفس الوقت أو أن تلتهم

اثنتي عشرة قطعة من لحم البقرِ المشوي في وجبةٍ واحدة.

إننا نخشى أن يتسبب الثراء والفراغ في دفعنا إلى طقوس العربَدة والمجون والتصرفات المُنحرفَة الخبيثة كما حدث في الماضي، ومنها إلى الشَبع والضعف والفساد تمامًا كما وصف المشهد الفنان ويليام هوغارت في لوحته الفنية «التطور الداعِر»

في الواقع، هناك مُبَررات معقولة لمثل تلك المخاوف، ومَن يعرف؟ فقد يصبح لدينا إنجلترا الجديدة الحُرة، وحينها قد يتولى ملف مشكلاتنا المُزمنة مجموعة من الحكماء أو الوعاظ الذين يقومون بغرس ثقافة الشعور بالذنب في أعماقِ أرواحنا.

كان يجدر بدُعاةِ أواخر القرن العشرين الإصرار على أن التَمتع بالرفاهية الكاملة واجب مَهيب ومُقَدَس، كان يتعين عليهم أن يخبروا الناس أنه ينبغي للأشخاصِ التائبين الاعتراف بأبسطِ أخطائهم عند إهمال أدق التفاصيل عند القيام بعملٍ ما، كأن يعتذر أحدهم عن إغفاله وضع القنب الهندي أثناء حشو الديك الرومي خلال إقامة مأدبة غداء للأصدقاء. أعرف أنني أتحدث الآن -بنبرةٍ ساخرة- لكني أحاول جاهدًا ألا أجعل من تلك النقطة الهامة الفاصلة مجرد فكرة تعتمد على التَمني، إذ إن بناء تلك المدينة الاقتصادية الفاضلة هو البديل الرئيس الضروري لفكرة الدمار الذاتي.

إن التحدي الأخلاقي والمشكلة القاتمة التي نواجهها الآن هي أن حياة الثراء والمُتَع تتطلب التزامًا دقيقًا ومخيلة جامحة، تمامًا كما الحال مع المعادن التي تتدهور إذا تعرضت للإنهاك، فإن التحفيز المُستمر للوعي مهما كان مُمتعًا لفتراتٍ

مؤقتة، فإنه تدريجيًا يصبح مُملًا ويتم تجاهله، فعندما تكون الراحة البدنية الجسدية دائمة، يتعذر على المرء مُلاحظتها والانتباه إليها.

فإذا قلقت لسنواتٍ طويلة بخصوص قلة المال ثم أصبحت شخصًا غنيًا في مرحلةٍ لاحقة، فإن هذا الشعور الجديد بالراحة والأمن لن يستمر طويلًا لأنك ستبدأ في الشعور بالقلق من جديد بشأن إصابتك بمرض السرطان أو القلب، فالطبيعة تأبى الفراغ، ولهذا السبب، فإنه لا يمكن تأمين حياة مُمتعة والحفاظ عليها دون وجود حد معقول من الشعورِ بالزُهد.

الأمر أشبَه بالوقتِ الذي تحتاجه امرأة ما حتى تحافظ على لمعان وجهها وترتيب خصلات شعرها أثناء استعدادها للقيام بأعمالٍ الحياكة أو تحضير مائدة الطعام.

وكذلك الفرنسيون ينجحون في التمييز بين الشخص النَهِم والشخص الذواق بأن الأول هو ذلك الشرِه الأكول الذي يُلقي بأي شيء وكل شيء داخل فمه، بينما الشخص الأخير هو إنسان دقيق صعب الإرضاء مُحِب لفنون الطهي. على الجانب الآخر، نادرًا ما قام أثرياء الولايات المتحدة الأمريكية بإظهار دور الخيال في تنمية فنون البهجة والمُتعة.

فهناك تجد مدير الأعمال التنفيذي يبدو ككاهن أو مُتَعهد دفن موتى أكثر من كونه يبدو كرجل ثري، علاوةً على ذلك أنه يرتدي أحد أكثر الثياب غير المُريحَة التي صممها البشر على الإطلاق مقارنةً بثوب الكيمونو والقُفطان.

هل جربت من قبل تناول الطعام في مطعم خاص لشركة قيادية كبيرة تضم أشخاصًا مُهمين؟

يمكنني القول إن الأمر يبدو مؤسسيًا رسميًا بطريقةٍ محضة، ففي أغلى النوادي الليلية والمطاعم يصل ثمن طبق العشاء الخيري 2000 دولارا! فتجد المرء يجلس بائسًا في إحدى الزوايا ويتناول هذا الدجاج الاصطناعي المُنتشِر في كل مكان والذي تفوح منه رائحة الآلات!

لو أن أحد المسؤولين قد رفع أعداد العمال الشباب في هذا القطاع، لكانت المسألة برمتها قد تغيرت كثيرًا عن هذا، ناهيك عن نمط الرجال أصحاب الشعر الطويل والملابس الزاهية، فقد بدأ الرجال أيضًا في ارتداء المجوهرات كمحاولة لتقليد أنماط الثراء الشرقي في العصور الوسطى، والتي بدأت في الاختفاء عندما انتقلت السلطة من طبقة النبلاء إلى تجار المدينة البُخلاء أو ما يُعرَف باسم البرجوازيين.

هناك تغيير واضح للقيم أسفل تلك المظاهر الخارجية، إذ إن الخبرات في مجال المال باتت أهم من الممتلكات والحسابات المصرفية، كما أن خطط المستقبل صارت ملكًا لأولئك الذين يعيشون في الحاضر بشكلٍ كامل. قد يبدو الأمر غير مُنضبط وغير فعال وكأن الشباب اليافعين غير قادرين على تأجيل الشعور بالمُتعَة، وبناءً عليه فإن حركات التمرد الطلابية في جميع أنحاءِ العالم تعد علامة على أن المُراهِق لم يعد يرغب بعد الآن في العمل من خلال فترة تدريب والتي تلزمه ليصبح شخصًا بالغًا.

إن كبار السِن الأفاضل لا يفهمون أن طلاب اليوم لا يرغبون أن يروهم بتلك الصورة كأشخاصٍ يافعين، تلك المرحلة التي ينشد التدريب القيّم المُتطور إنتاجها. لطالما كان الفنانون بمثابة رُسُل بارزين في عملية التغيير الاجتماعي،

كما أنهم بمثابة المُخَدِّر الذي تنتشي له الروح والذي يتسم باللاشرعية. فهم يستخدمون الألوان المكثفة عالية الوضوح من حيث الخط والشكل، يجدر بنا القول إن دُعاة هذا الأسلوب وحُراس تلك الأسس الفنية هم مَن مكنوا الفن الغربي من استعادة مجده الكبير، ذلك الذي قد غاب بدوره عن المشهد منذ أيام اللوحات الفرنسية الكِلتية المُلَونَة مثل زجاج شارتر المضيء وزخارف ليموج المدهش.

إنها تدفع العقل لاسترجاع تلك الصورة الرائعة للبساتين المُرصَعَة بالجواهر وكذلك إيقاعات التفاصيل الدقيقة للأرابيسك المغربي، ولتلك الزخرفة الذهبية للأقمشة والمنسوجات الهندوسية، جدير بالذكر أنه من بين الأدوات الموسيقية التي تستخدمها حركة الهيبيز الشبابية العود والقيثارة، وأشكالها الرقيقة الدقيقة المُميزَة المُطَعَمَة بالذهب جيدة المَلمَس والتي تُشبه إلى حدٍ كبير تلك الأعمال الخاصة بعصرِ النهضة الإيطالي.

علاوةً على ذلك، فإن الموسيقيين قد بدؤوا في إدراك أن فرقة البيتلز الموسيقية (كمثال حقيقي) قد قدمت عرضًا موسيقيًا جادًا عبقريًا، مما جعلهم في حالة تناغُم وانسجام مع قادة الموسيقى الغربيين الكبار بدءًا من باخ وصولًا إلى سترافينسكي، كما أن بعض أغنيات ديلان ودونوفان ممتعة جدًا كما أغنيات ليدر.

يمكن لاقتصاد الترفيه ذاك توفير فرصة لتطوير إمكانات الفنانين وأصحاب الحرف والرسامين والنحاتين والشعراء والمؤلفين والمُستكشفين -تلك الإمكانات التي تعيش بداخلنا جميعًا- لو أنه فقط بمقدورنا أن نكسب لقمة عيشنا بهذه الطريقة.

بالطبع سيكون هناك مجموعة كبيرة من النتاجات السيئة غير المُبالية والتي ستأتي من الهواة ضيقي الأفق ممَن لا يمتلكون مُخيلة جامحة غير أن الأثر العام سوف يؤدي بدوره إلى حالة هائلة من الثراء في جودة ونوعية الفنون الجميلة والموسيقى والطعام والأثاث والثياب والبَستَنَة وحتى المنازل، التي سوف يصبح حجمها أكبر وستختلف على حسب الذائقة الخاصة بكل فرد.

سوف يوفر الإنتاج الميكانيكي الضخم مرافق وخدمات ومواد خام وأدوات وبعض المُنتجات الغذائية، كما أنه سوف يُحررنا في الوقتِ ذاته من كل منتجات القمامة والنفايات التي يتعين علينا شراؤها الآن نظرًا لقلة الوقت لنستخدمها من أجل صناعة نوعية أفضل من الثياب والأطباق وغيرها من أدوات ومواد الحياة اليومية التي نستخدمها بشكلٍ رائع والتي نُزَين بها متاحفنا اليوم.

يجدر بنا الإشارة، أنه من الناحية التاريخية لم يتمكن أحد من الحصول على هذا المستوى من الكمالية والرفاهية سوى أولئك ممَن ينتمون إلى الطبقة البرجوازية ممَن كانوا يستغلون العبيد في أعمالِ السُخرَة المُخزية. على الرغم من أن البرجوازيين يمارسون أعمال الاستثمار في الوقتِ الحالي، إلا أنهم في بدايةِ المطاف كانوا مجرد وافدين جُدد جبناء مُترددين في اتخاذ القرارات، كما غمرهم الشعور بالذنب كما جماعة البروتستانت الدينية، فقد كانوا يُخفون ثروتهم في البنوك ويبذلون قصارى جهدهم ليتظاهروا بأن العمل الناجح أساسه الزُهد والتضحية الحياتية، ولكن مع وجود دخل أساسي سنوي مضمون في عام 2000 لن يكونوا بحاجة إلى العبيد، لكنهم فقط سيكونون بحاجة إلى الآلات، وحينها سيكون دورنا الحالي هو أن نحيا هذا النوع من الرفاهية المدهشة التي تعتمد على التفاني المُمتزج بروح الترفيه في كافة أشكال الفنون والحرف

والعلوم (في الواقع، لقد نسينا منذ مدةٍ زمنيةٍ طويلة أن المدرسة هي مكان للترفيه، إذ باستطاعة أولئك ممَن لا يرغبون في البحث عن طريقة أخرى لكسب لقمة العيش أن يسخروا جهدهم بشكلٍ مُحايد لدراسة المعرفة والفن).

وفي ظل تلك الظروف، دعونا نتساءل عن هذا النمط المعيشي الذي قد يحظى به الأثرياء الزنوج دون خضوعهم لأي حالة من حالاتِ الضغط حتى يقوموا بتقليد البرجوازيين البيض؟

من الممكن أن نمط الحياة سيكون مُبهجًا أنيقًا، لكني أشعر أنه لن يعكس تلك الحالة من الشراهة والنَهم التي واجهها الأرستقراطيون في الماضي.

إنني أتحدث بنبرة نصف جادة، فبحلول عام 2000، سوف تتبع معظم دول قارة آسيا دولة اليابان وسوف تحذو حذوها في اعتماد الطرق السريعة، كما أنها ستعج بأكشاك النقانق، ولافتات النيون، والمصانع، والمباني السكنية شاهقة الارتفاع، والمطارات الضخمة، وأسراب من سياراتِ التويوتا، كما أن العمال والفلاحين سوف يركضون في الشوارع مُرتدين بدلات العمل الرسمية، على أي حال فقد عاشت الولايات المتحدة الأمريكية كل ذلك وضاقت به ذرعًا، ففي المستقبل ستجد الحكماء والرهبان اليابانيون يقومون بإلقاء الخطب التعليمية، بالإضافة إلى دعوة خبراء وأساتذة الألعاب اليابانية ومُنظمو حفلات الشاي ومدارس الخط الصيني وحلقات تعليم فلسفة الزن البوذية، بينما ستجد الناس يتجولون هنا وهناك مرتدين الزي الياباني إما الساري أو العباءة الشعبية أو الكيمونو أو أي شكل من أشكالِ الثياب المُلونَة المُريحَة تمامًا كما يقوم الفرنسيون الآن بشراء الخبز المُخَمَر من خلال نقله بالطائرات النفاثة من سان فرانسيسكو، فإن سُكان التبت واليابان سوف يدرسون البوذية في شيكاغو.

فهذه ليست نكتة، ومن الممكن الاستدلال على ذلك من خلال اهتمام طُلاب الجامعات الأمريكية المُتزايد بالتصوف الشرقي وغيرها من الدراساتِ غير الغربية تمامًا مثل دورات الثقافة الأفرو آسيوية كما يتم تصنيفها الآن.

وبشكلٍ واضح لا يمكننا النظر إلى هذا الاهتمام المُتزايد بطريقة مُنفصلة بعيدة عن الاستخدام الشائع الواسع للعقاقير المُخدرة وحبوب الهلوسة، فالمسألة ليست كما تبدو فهي ليست بديلًا للكحول، بل أكثر من مجرد مغامرة. إنها أقرب إلى اكتشاف أبعاد جديدة للتجربة.

أود أن أكرر أن الطلاب يميلون أكثر للاهتمام بالتجارب أكثر من حيازتهم للممتلكات. إنهم يشعرون أن طريقة آبائهم في اختبار أنفسهم والعالم من حولهم تتسم بالمرض والفقر والوهم، ويرجع ذلك بالطبع إلى أن آباءهم قد خلطوا لأجيالٍ طويلة بين الرمز والواقع، فقد خلطوا بدورهم بين المال والثراء، وبين الشخصية أو الأنا والكائن الحي البشري الحقيقي.

يكمن لُب المشكلة هنا تحديدًا، فلا يمكننا أن نمضي قُدمًا وفق إنتاجية تكنولوجية كاملة تستهدف تحويل الأرض كلها إلى لوس أنجلوس مثلًا! فهي بذلك تقوم بتسميم المكونات والعناصر الطبيعية، وتدمير الحياة البرية، وإصابة مجرى الدم نتيجة الاستخدامات المختلطة للمضادات الحيوية والمُبيدات الحشرية، وسيكون ذلك كله بمثابة نتيجة مؤكدة لهذا المشروع التكنولوجي الذي سيتم إجراؤه في جوٍ من العدائية التي تنشد غزو الطبيعة من أجل تحقيق الهدف الرئيس ألا وهو كسب المال.

مع ذلك تتزايد تلك المخاوف الشعبية لترتقي بدورها فوق كافة المشكلات

الأخرى مثل تآكل التربة، وتلوث الهواء والماء، وتدمير المحاصيل والماشية التي يتم تربيتها وفقًا لعدة طرائق صناعية حيوانية، وفي ظل تلك العملية لا يلقى الجانب التكنولوجي البيئي إلا قدرًا بسيطا جدًا من التطور، فإذا احترمت تلك الوسائل التكنولوجية بيئة الإنسان بأسرها احترمت وجوده الخاص بطبيعة الحال.

أيمكننا الإشارة في هذا الصدد إلى أن عددًا كبيرًا من الشركات وكذلك الأشخاص المُساهمون يغفلون اهتماماتهم المادية لأن الآثار السلبية السيئة لتلك التكنولوجيا غير المسؤولة سرعان ما تشرع في الظهور مما يجعلنا غير قادرين على نقل المسؤولية لأطفالنا.

لقد أثبتت التحقيقات الحديثة هنا وفي انجلترا أن العمال الفعليين بمصانع الدجاج يتجنبون تناول مُنتجاتهم، وقد يكون الأمر ذاته بالنسبة لشَهية أولئك المُساهمين الغائبين الذين لا يعلمون الكثير حول مسألة تربية الدجاج في أقفاصِ البطاريات.

والسؤال هنا هل يهتم أحد بما قد حدث لمذاق الخضراوات والفاكهة أو لتلك المادة الشمعية التي يتم رشها على أسطح ثمار التفاح والطماطم من أجل تحسين مظهرها؟ (لقد قمت ذات مرة بخدش ثمرة تفاح برفق لأتأكد من ذلك بنفسي).

إنني أتساءل ماذا عن شرائي منزلا بحوالي 80000 دولار في منطقة بيفرلي هيلز لأسكن وسط أدخنة العوادم؟ هل هذا أمر جيد أم سيئ؟ (أذكر أنني لم أنزعج من استنشاق الغاز المسيل للدموع في شهر مايو الماضي في باريس لأنني

قد تعودت عليه من خلال إقامتي في لوس أنجلوس!).

أليس من الجنون أن أمتلك سيارة فراري لأمضي بها مرتين يوميًا ثم أفقد أعصابي وأغامر بحياتي أثناء الانتقال من نوروك، كونيتيكت إلى شارع ماديسون، نيويورك؟

ماذا عن هذا المشهد الرائع الخلاب الذي اعتدت رؤيته من نافذة الطائرة خلال المسافة بين سان فرانسيسكو وسياتل، تلك المساحات المُمتَدَة الشاسعة لقمم تِلال ولاية أوريجون البُنية المُنقطَة بجذوعِ الأشجار؟

لعله من باب المُبالغة في التبسيط أن أقول إن ذلك يأتي كنتيجة طبيعية لتقييم الأعمال بناءً على عائد الربح وليس المُنتَج، إذ إنه لا يمكن لشخصٍ ما أن يقوم بأي عمل دون أن يتوقع قدرًا مُحَفِّزًا من الربح. إن المشكلة الحقيقية تبرز في أنه قد تم تحديد هذا الربح بشكلٍ كُلي تام بالمال فقط دون النظر إلى أي ربح آخر لكيفية عيش الحياة ذاتها بكرامة وأناقة وسط مناطق مُحيطة جميلة، لكن المستثمرين لا يتحملون المسؤولية طويلة الأمد لقاء استخدامهم لرأس المال الخاص بهم، فهم يقومون فقط بعمل تخفيضات الشراء ثم يُراقبون السوق من حيث مُتابعة حركة العملات النقدية.

إنهم لا يوجهون أي انتباه لتلك العمليات المادية التي قاموا بتمويلها وفي بعض الأحيان تجدهم لا يعرفون حتى أن أموالهم تلك قد أستثمِرَت في ثمار الطماطم التي تناولوها الليلة على العشاء! إذ إن تجربتهم الفعلية في عالم الأعمال اقتصرت على ترجمة سطحية مُجردة حسابية أوتوماتيكية قد تجاهلت بدورها القوام والمَلمَس والمذاق والشكل والصوت والرائحة!

جدير بالذكر أن مسألة حل تلك المعضلة المُمتثلة في انعدام المسؤولية من خلال سَن القوانين أمر في غايةِ العبث، فالمسألة هنا هي أن القانون ذاته لا تربطه علاقة كبيرة بالحياة بمفهومها الحقيقي، فالعلاقة بينهما تمامًا كما تلك التي بين الثراء والمال من حيث الرمز والواقعية، على النقيض فإن هذا النوع من المشكلات يتفاقم بطريقةٍ أكبر ولا يمكن حله من خلال الأعمال الورقية السياسية أو القوانين.

فالأمر الأبسط والأكثر صعوبة في آنٍ واحد هو أنه يتعين على المُمولين والمصرفيين وأصحاب الأسهم تحويل كياناتهم إلى كياناتٍ حقيقية، وأن يسألوا أنفسهم عما يريدونه حقًا من هذه الحياة، وأن يدركوا أن تلك الحياة العملية وأن هذه الأسئلة الجادة الصعبة هي ما تقود في النهاية إلى أشد طرق الحياة بهجة والتي تتفوق بدورها على تلك الطرق التي يسعون خلفها الآن.

فالمسألة ببساطة أنه يتعين عليهم العودة إلى رُشدهم وذلك من أجل تحقيق الربح الشخصي والسعادة، ومع ذلك تبقى الصعوبة في أن معظم أهم كبار المديرين التنفيذيين يعيشون في عالمٍ مُغلَق. إنهم يندفعون على عجلة إلى منازلهم الباهظة غير الخيالية ثم إلى النوادي ثم إلى مكاتب عملهم المليئة بكل وسائل الرفاهية والراحة، هناك حيث يمكنهم الجلوس في حالة تامة من الحماية وكأنهم يخضعون لعملية تَغليف شاملة من جانب موظفيهم وطاقم السكرتارية لديهم.

إنهم لا يقرؤون إلا تلك الملاحظات التي يقدمها لهم تابعيهم، كما أنهم لا يتسامرون إلا مع هؤلاء ممَن يشبهونهم. فمن المستحيل أن يتواصل معهم أي أشخاص ينتمون خارج طبقتهم المُحددة تلك بصفةٍ مُباشرة. إنهم ضحايا لهذا

النظام (الشعائري) المُعتاد شديد التعقيد، كما أن هذا هو النهج الموحد الذي تتبعه كافة الشركات في نفس المجال، وكأن مسألة تغيير ذلك النمط أمر غير معقول تمامًا كما إعادة تشكيل العقل البشري!

في الواقع إن تلك الحياة تمثل شكلًا من أشكال لعب الأدوار مع مكافأة غير واضحة مُبهَمَة، إذ إن المكافآت المادية شحيحة ضئيلة بطبيعتها هنا لسببٍ واحد وهو أن تلك العملية مُتعِبة مُنهكة وتستغرق وقتًا طويلًا، لكن فكرة اقتراح تغيير هذا الدور الراسخ بالنسبة لرائد الأعمال والذي يقوم هنا بدور «اللاعب» أمر في غاية الصعوبة، وذلك لأنك عندما تُحدثه عن مسألة التغيير ذاتها يتوهم أنك تريده أن يصبح شخصا آخر سواه! وهنا يشعر بأنك سددت إهانة واضحة لكبريائه المزعوم، فهو يشعر في قرارة نفسه أنه يتشبث بمكانة رفيعة ذات شأن مهما كانت إحباطات وضعه وطبيعته وميوله المادية.

قد يكون هذا أمرًا جديرًا بالثناء لو أن هذا الدور الذي يلعبه رائد الأعمال يتعلق بتلبية كافة المسؤوليات المجتمعية المهمة، فهناك الكثير من رجال الأعمال الذي يقومون بذلك ويشعرون بالفعل بتلك المسؤولية بداخل أعماقهم، لكن عالمهم المُنغَلِق يمنعهم من إدراك مسألة عدم قدرتهم على تحمل المسؤولية وسط هذا العالم الواسع البعيد الهائل وسط أحداثه المادية المتنوعة، فحينها لن يقدروا حتى على تحمل تلك المسؤولية أمام أبنائهم ولا أمام أنفسهم، هذا الأمر على وجه التحدي الذي يدفع الكثير من أبنائهم للانجراف بعيدًا إلى مغامراتٍ مُريبَة مشبوهة إلى هايت آشبوري أو القرية الشرقية، إذ إنهم يجدون أماكن مثل سكارسديل أو أثرتون أو ليك فورست أو بيفرلي هيلز مناطِق شديدة المَلل والكآبة.

في حقيقة الأمر، إنني أتمنى بشدة أن يتمكن أولئك الأطفال من الوصول إلى آبائهم متى أرادوا، فمن الصعب حقًا أن يكون المرء مُضطرًا لتعيين طاقم سكرتارية بينه وبين ابنه!

هل هناك أية سابقة تاريخية لواقعة تَمَرُد لجيل أصغر ضد جيل آخر أكبر بالحجم الحالي؟ ماذا؟ هل الأمر مُنتَشِر على نطاقٍ واسع؟ هل الأمر وصل بالفعل إلى أقصى مراحل التطور في السياسة والجوانب الأخلاقية والدينية وعوالم الأزياء والفنون والموسيقى؟

يا للأسف! ألا يبدو ذلك صاخبًا جدًا في ظل وجود هذا الكم من وسائل تقنيات الاتصال المُتاحَة حاليًا؟!

إنني لا أؤمن أن الأشخاص الكبار الحكماء سيرفضون الأطفال في النهاية، فالمسألة ضد الطبيعة، ولكن من أجل خلق حالة من السلام، فإنه يجدر بنا القول إنه يتعين على الكبار سنًا التَحرك بعيدًا عن مواقعهم الراهنة.

لسنا أقل تفاؤلًا إذا قلنا إن التغيير البسيط يؤدي إلى تحقيق الغرض المنشود تدريجيًا، فقد أدى تَغيُر تلك المبادئ البسيطة لدى العُمال الناجحين من أصحابِ الياقاتِ الزرقاء إلى قدرتهم لاحقًا على تكوين نقابات عُمالية نظامية، كما أنهم شكلوا إمكانات هائلة وخطيرة في وجه الفاشية الأمريكية، فقد نشأت تلك النقابات في بداية المطاف في ظل حالة من الالتباس بين الرمز والواقع تمامًا كما الحال مع المُستثمرين، فقد كانت الأجرة أكثر أهمية من العمل ذاته لأن كل شيء يتماشى مع ساعات النقابة، وكذلك لم يكن هناك أي روح حماسية للقيام بالحرفة ذاتها، وقد مضى الأمر على هذا النحو حتى حلت الآلات محل الأيدي العاملة.

إن الفرضية الأساسية لتأسيس النقابات لم تكن تعزيز قيمة الكرامة، وإنما كانت للتأكيد على سمة الجهد والكدح البشري، وكانت الاستراتيجية تتمثل في أن يقوم العامل بأقل عمل ممكن لقاء الحصول على أكبر أجر مُتاح، وبناءً على ما سبق فإن نظام المَيكَنَة قد ألغى ما نُعَرفه بالجهد البشري، كما أنه قضى على فكرة النقابات، تلك الحقيقة التي امتدت لتصل إلى النقابات الأكثر رُقيًا كما الموسيقيين، إذ إنه يمكن الآن استبدال عازِف المزمار الذي يكره العزف بشريط موسيقى مُسَجّل والذي لن يعترض بدوره على تلك النغمة التي يقوم المُلَحّن بتحديدها.

فإذا كان للنقابات أي فائدة قادمة، فإنه يجدر بها استخدام قوتها السياسية الضاغطة ليس من أجل تحقيق ربح مادي أكبر من خلال الحصول على أجورٍ مرتفعة، ولكن عليهم استخدام تلك القوة الهائلة في مراجعة مفهوم ووظيفة المال. إن هذا الخوف الشعبي من أن فكرة الإنتاج والثراء سوف تضع قيودًا على عملية النمو السكاني هي مسألة مُناهضة للحقائق، إذ إن الزيادة السكانية هي أحد أعراض الفقر وليس الثراء.

جدير بالذكر أن اليابان هي الدولة المُصَنّعَة بقارة آسيا، كما أنها الدولة الآسيوية الأبرز التي نجحت في إيجاد برنامج فعال لمُكافحة الزيادة السكانية، كذلك قد انخفض معدل المواليد في السويد وألمانيا الغربية، وسويسرا والولايات المتحدة الأمريكية، وعلى الجانب الآخر فإن أفقر الشعوب الآسيوية والإفريقية تكره وتُقاوم مجرد النصيحة بما يخص تحديد أو تنظيم النسل، فهم يشعرون أن تلك ما هي إلا حيلة أخرى من الرجل الأبيض للقضاء على قوتهم السياسية.

وبناءً على ما سبَق، فإن الطريقة العاملة البشرية الرئيسة للسيطرة على الكثافة السكانية هي أن نقوم بكل شيء ممكن من أجل زيادة إمدادات العالم بالطعام، وكذلك لنضيف لتلك الغاية الثراء والطاقة اللازمين والتي تُهدَر لتوها الآن في مجال التكنولوجيا العسكرية.

فالولايات المتحدة الأمريكية تضع جيشها وقواتها المُسَلحة تبعًا لوجهة نظر تكتيكية صارمة تحت رعاية مجموعة من الاستراتيجيين غير الأكفاء الذين يتأملون المشهد في ضوء عدد من اللقطات السيئة التي لا تجعلهم يقدرون على التمييز بين المهارة العسكرية وقوة النيران المُجَردَة، أولئك ممَن يطلقون النيران على البعوض بالرشاشاتِ الآلية، وممَن يُحَررون البلدان من خلال تدمير أراضيها، وممَن يتخذون من تلك العبارة شعارًا لهم والتي تقول:

«السلاح ليس سلاحًا في حد ذاته، لكنه وسيلة انتحار جماعي.»

أولئك الأشخاص ممَن يعتمدون على التقسيم الصبياني الطفولي لصورة العالم، فتجدهم يصنفون أبناءه إلى «أشخاص جيدين» و«أشخاص سيئين»، أولئك ممَن يعتبرون أعداءهم ليسوا بشرًا، فهم يتعاملون معهم باعتبارهم أعوان الشيطان ويتبنون بدورهم رؤية شيطانية.

فلو كنا نقاتل في فيتنام بنيةٍ ماديةٍ صادقة لحفظ الثروة وحماية نساء هذه الأرض، لكنا تركناها سليمة على الأقل، لكن القتال من أجل تحقيق مبادئ مُجردة مُبهمة يجعلنا بمنأى عن المادية مُجَددًا، وحينها نصبح أدوات فاعلة للقسوة والجحود والعناد الذي يجعلنا نتوهم أن كافة الأشياء أمامنا بيضاء تخلو من تباين اللون الأسود، نجد أن تيموثي ليري -على سبيل المثال- لم يكن بمنأى عن

الصواب عندما قال إنه يتعين علينا أن نخرج من تلك المنطقة الذهنية التي تحتجزنا بداخلها (والتي تعد قيمًا مُجردَة) وأن نعود إلى صوابنا (تلك التي تُمثل القيم الملموسَة).

يجدر القول إن العودة إلى رُشدنا على أي حال يجب أن تتمثل في تجربة وجودنا ككائنات حية بدلًا من اعتبارنا مجرد «شخصيات» مجردة تمامًا كما شخصيات أي مسرحية أو رواية تقوم بحبكة مُصطنعة، ففيها ترتدي الشخصيات أقنعة للتخفي أثناء تناول الصراعات والأفكارِ المُجردة والمفاهيم. يمكننا القول إن الإنسان بصفته كائنًا حيًا يعد بالنسبة للعالم الخارجي كما دوامة النهر، فالإنسان والعالم عملية طبيعية واحدة، لكننا نتصرف باعتبارنا غُزاه مُستعمرون طُغاة في أرضٍ غريبة، فعندما يتم تعريف المرء وتحديد هويته كشخصية مُنفصلة مُستقلة أو أن يتم ذلك تبعًا لتعريف الأنا الخاص به يظل غير واعٍ بكون جسده نمطًا راقصًا من الطاقة التي لم تُخلَق من تلقاءِ نفسها، إنما يحدث ذلك فقط بالتنسيق والتناغُم مع أنماطٍ أخرى تُعرَف باسم الحيوانات، والنباتات، والحشرات، والبكتيريا، والمعادن والسوائل والغازات.

إن تعريف الشخص والشعور الطبيعي لكلمة «أنا» لا يشتمل على تلك العلاقات، فأنت تقول «لقد جئتُ إلى هذا العالم.»، لكن حقيقة الأمر أن هذا لم يحدث، لأنك جئت منه وليس إليه! تمامًا كغصن يتدلى من شجرةٍ ما.

إننا لا نشعر بهذا الأمر لوقتٍ طويل، فليس هناك دافع معين لتشكيل تلك الأشكال السياسية التي تربط بين الناس، وليس هناك حافز بعينه لتكوين أشكال التكنولوجيا التي أقرت أنه لا يمكننا الفصل بين الإنسان وشبكة الأنماط الطبيعية الكاملة، والسؤال هنا، كيف يمكن إذن تغيير هذا الشعور بالذات؟ هل يمكننا ذلك

من خلال التثقيف العلمي؟

إن اتباع ذلك المنهج سوف يعزز بدوره جانب الفكر وليس المشاعر. هل يمكننا ذلك عن طريق الدين؟ في الواقع لست مُتفائلًا بشأن السجل التاريخي لهذه النتيجة. هل يمكن ذلك عن طريق العلاج النفسي؟

الأمر بطيء للغاية. إذا كان بمقدورنا فعل أي شيء حيال ذلك الأمر -تحديدًا- في الوقتِ الحالي، فإنه يجدر بي الاتفاق مع ما قاله الكاتب ألدوس هكسلي وكذلك مع الأكاديمي الرصين آرثر كويستلر في كتابه «الشبح الآلي» بأن علاجنا الوحيد قد يتمثل في العلاج النفسي المتجسد في قرص دواء، ذلك الأمر الذي قد يُعيد عقلنا إلى صوابه، على الرغم من أنني قد تعاطفت مع تلك التجربة إلا أنني سأتردد في محاولة تغيير العالم بالأدوية والعقاقير المُخدرة، فالأمر أشبه بأن تقوم بمنح كافة الأفراد جرعات إضافية بشكلٍ عشوائي. في الواقع نحن لا نعرف شيئًا عن ماهية التلف البيئي الذي قد وقع بالفعل، نحن لا نعرف إلى أي مدى قمنا بإرباك توازن قوى الطبيعة، ولهذا فإنني أمتلك اقتراحًا آخر غير مقبول لطرحه.

ببساطة ليس هناك شيء بمقدورنا فعله تجاه هذا الأمر، فقد صرح الفيزيائي النظري روبرت أوبنهايمر قبل وفاته بوقتٍ قصير أنه قد لاحظ أن العالم يتجه -بصورةٍ واضحة- وفي ضوء كل مُتغيراته الحالية إلى الجحيم، وأضاف أن الفرصة الضئيلة أمامنا هي ألا نفعل شيئًا لإيقاف ذلك الخطر! إذ إن وهمنا العظيم بهذه الصورة المجردة للأنا التي بداخلنا لا يمكنه إيجاد حالة تطور جذري حقيقي سواء بداخل الذات أو في العالم نفسه، فالأمر مستحيل من الناحية الفيزيائية المادية تمامًا كما لو كنت تحاول عبثًا أن ترفع نفسك من على الأرض من خلال حذائك!

علاوةً على ذلك، فإن الأنا هي مثل المال، فهي مفهوم ورمز، أي أنها شيء مجرد وهمي وليست عملية بيولوجية أو واقعًا ماديًا.

إن هذا يعني أن نتوقف عن الهجوم والقتال على الصعيد العملي التطبيقي، إذ إن التوقف عن تلك الأسباب المُجرَدة هو ما يؤدي إلى نشر قيم الخير والحق والسلام والحب الكوني والعدالة الاجتماعية، وأن نتوقف عن الاقتراب من تلك القيم الأخرى مثل الشيوعية والفاشية والعنصرية، والقوى الوهمية للظلام والشر، فكل هذه النيران الجحيمية التي تغزو العالم الآن اعتمدت أساسًا على النوايا الحسنة! فنحن نُبَرر الحروب والثروات باعتبارها وسائل مؤسفة لتحقيق غاياتٍ جيدة تمامًا كما شرح أحد جنرالات فيتنام مؤخرًا أنه قد قام بتدمير قرية كاملة في فيتنام من أجل الحفاظ على سلامتها!!

ولهذا السبب أيضًا نصل إلى اتفاق حقيقي صادق -بخلاف ذلك الاتفاق الصوري المُزيف الذي نصل إليه عند طاولات المؤتمرات- فكل طرف يصدق أنه حقًا يعمل من أجل تحقيق النفع الهائل للعالم. فحتى يكون المرء إنسانًا حقيقيًا يتعين عليه أن يكون قادرًا على إدراك وتَقَبُل قدر محدد من النذالة والشر سواء أكان بداخله أو بداخل نفوس أعدائه، ولهذا فهناك راحة كبيرة أن نُدرك أن تلك المطامح المجردة غير مُجدية على الإطلاق، ولنرى أيضًا أننا كنا نُهدر قدرًا هائلًا من الطاقة النفسية والبدنية في تلك المعركة الحِسية، فعندما نفهم أن محاولة القيام بالأشياءِ الجيدة دون الشريرة أمر غريب تمامًا كما محاولة رؤية الأبيض دون الأسود، حينها فقط سوف تتَحرر طاقتنا لكي نتمكن من إنجازِ الأشياء. من الممكن تحويل الأسباب المُجردة إلى مهام مادية محددة في مجالات الطهي والزراعة والتعدين والهندسة وحياكة الثياب والبناء والسفر والتعلم والفن

والموسيقى والرقص وممارسة الحب، فمن الجيد القيام بتلك الأشياء لذاتها وليس من أجل أي شيء أو شخص آخر.

جريمة في المطبخ

يمكننا القول إن الجسد البشري ليس شيئًا ثابتًا، لكنه بمثابة حدث مُتَدَفِق مثل شرارة النار أو دوامَة النهر، فالشكل وحده مُستَقِر جامد، بينما تعد المادة تيار طاقة يمضي في اتجاهٍ ما وينتهي في الاتجاه الآخر، فنحن ذبذباتٍ مُحَددة مُعَرفَة تمضي بداخل التيار لتدخل في هيئة ضوء أو حرارة أو ماء أو حليب أو فاكهة أو خبز أو جِعَة أو لحم بقري أو بيض سمك أو كبدة الإوز.

إن تلك الذبذبات الطاقية تخرج في هيئة غاز أو فضلات أو سائل منوي أو أطفالٍ رُضَع أو أحاديث أو آراء سياسية أو تجارة أو حرب أو شِعر أو موسيقى أو فلسفة.

فالفيلسوف كما يُفتَرَض بي أن أكون هو ما يُمثل نمط المفكر الذي لا زال يُحافظ على فطرته، فهو لا زال ينظر بشغف ويُحَدِق في تلك الأشياء التي يُسَلِم بها الأشخاص الحساسون تسليمًا قاطعًا، إنه ذلك الشخص الذي لا يمكنه التخلص من ذلك الشعور القائل بأن كافة تلك الأشياء الحياتية العادية الواضحة هي أمور غريبة لا تُصَدَق!

لقد عبر سقراط عن ذلك المعنى بمقولة:

«إن الدهشة هي بدايةِ الفلسفة.»

فأنا أيضًا مُندَهِش جدًا أن أجد نفسي أعيش فوق كُرَة من الصخر، تلك التي تتأرجح وتدور حول كُرَة أخرى هائلة من النار! إنني أحيا حالة لا تنتهي من الدهشة، فأنا أتعجب من كوني أمتلك تلك المَتاهَة بداخلي! تلك الذبذبات

المُعَقدَة، الأقرب إلى عرض يشتمل على مجموعة أنابيب، وخلايا وألياف وأشرطة والشعيرات التي تتمثل في هذا التيار السائل من الطاقة، لكن ما يُبهرني حقًا أنه وسط تلك المتاهَة المادية المُذهلة وبعيدًا عن الماء توجد أجساد حية أخرى -أجساد الحيوانات والنباتات- تلك التي سوف أستمد منها اسم «جريمة»، فنحن مخلوقات تم إعادة ترتيبها من أجل خوض التجربة البيولوجية، تلك التي تستمر فقط من خلال عمليات الذبح المُتبادل وهضم بقية الأنواع الأصغر على اختلاف أشكالها وأنواعها.

فأنا بصفتي كائن حي فإنني أتواجد من خلال انضمامي لتلك الترتيبات الغريبة التي تضم هذا الكم من الكائنات الحية الأخرى التي تزدهر من خلال التهام بعضها البعض. من المؤكد أن تلك المسألة مؤلمة، فأنا شخصيًا لا أود أن يلتهمني أحدهم، وبناءً عليه فإن المُخَطط بأسره يُربِك وجداني وضميري، فإن لم يُباغتني مُتعهد دفن الموتى أولًا، فهل إذا تناولت جسدي الجراثيم والديدان سيكون ذلك حينها بمثابة تعويضٍ عادل عن كل هذا الكم من الأبقار والخرفان والطيور والأسماك التي قمت بالتهامها خلال حياتي بأسرها؟

إنني أتساءل في عجب ثرى هل هذا الترتيب البيولوجي لنظام الالتهام والقتل المُتبادَل هو نظام غريب غير عقلاني يمضي بنا قُدمًا أسرع فأسرع حتى يُلقي بنا عند نهايةِ طريقٍ مسدود؟

لقد رأيت نباتات تكتظ بأعدادٍ هائلة من حشرة الذبابة الخضراء، وفي أحد الأيام وجدتها تمتلئ بأجسادِ تلك الحشرات الصغيرة الدقيقة، وفي مرة أخرى لاحقة وجدت ذرات غبار على أوراقٍ جافة. تبدو الحياة وكأنها تتألف من نظامٍ يأكل نفسه حتى الوصول إلى مرحلة الموت، وخلال ذلك فإن كل انتصار يُعادل

الهزيمة، باستطاعة المرء أن يمضي في نفس طريق حشرة الذبابة الخضراء، فمع أنه بات خبيرا في التكنولوجيا إلا أنه يُنظَر إليه باعتباره أكثر وحشية من سمكة البيرانا المفترسة.

إنه يلتهم الطعام ويُدمِر ويُلَوث سطح الكوكب بالكامل وهذا يشمل المناجم، والغابات والطيور والحشرات والمياه النظيفة، كما أنه قام بتحويل الطرق إلى ضواحٍ وأزقة وصرف صحي وضباب وصدأ، وفي الوقت الحالي قد سمح هذا الغزو الهائل الذي قام به منذ مواجهته الضارية مع كائنات هذا الكوكب بدءًا من النمور حتى البكتيريا لأن يدخل في مُشاحناتٍ أبدية مع أبناء جنسه خوفًا من وحشيتهم وجشعهم، ولهذا فإنه يُهدر جزءًا كبيرًا من الثراء في تصنيع الأسلحة المُميتَة، ومن ثَم تفقد مهاراته وقدراته التكنولوجية قوتها وتصبح -شيئًا فشيئًا- قديمة عفا عليها الزمان.

جدير بالذكر أن الحيوانات البدائية قد تعرضت للانقراض بسبب تلك الحالة من التطور الهائل لاستخدام الأسلحة، وعلى رأس تلك الحيوانات التي لم يعد لها وجود على الأرض في الوقت الراهن الببر المُسَيف الأسنان، والديناصور ذو القرون الضخمة.

ربما يمكننا أن نتقبل تلك الفكرة التي تقول إنه عندما يموت الفرد تموت تلك الأنواع أيضًا، وحينها سوف تظهر طاقة الكون في أنماطٍ وأشكالٍ وأقنعةٍ جديدة لترقص على أنغام الإيقاعات المختلفة، ويستمر العرض على هذا النحو، ولكن السؤال هنا هل يمضي الحال بذلك بشكلٍ مُكَثِف يحمل بداخله كآبة ما؟ هل يتعين دائمًا أن يكون ثمن الحياة هو تلك الحالة من الألم وهتك طبقاتِ الجلد الحساسة التي تنهشها الأسنان الحادة؟

فلو كان الأمر كذلك لكان ما قاله الكاتب ألبير كامو صحيحًا عندما صرح بقوله:

«إن الانتحار هو المسألة الفلسفية الجادة الوحيدة.»

ها هو الفيلسوف يتساءل في عجبٍ مرة أخرى إن كان هذا الانتحار طريقًا مُختَصَرًا للخروج من تلك الدائرة المفرغة القائمة على القتل المُتبادَل، والذي يبدو بدوره عملية انتحار أيضًا على المدى البعيد؟

إن السؤال المُلِح هنا هل هناك طريق آخر لتجنب تلك الجرائم التي تُرتَكب باسم الوجود الإنساني؟ هل هناك أي وسيلة للتخفيف من حدتها، فالنباتية - على سبيل المثال- مسألة لا حل لها، فمنذ سنوات طويلة قد قام عالم النبات جاجاديس بوس بقياس مقدار الألم الذي تتعرض له النباتات عند قطعها واقتطافها، فإن قلت إن النباتات لا تعرف أنها تحيا حالة من الألم فكأنك تقول إنها لا تُجيد التعبير عن نفسها.

عندما أشرت لهذا الأمر لعالم النبات البوذي ريجنالد إتش بليث الذي ألف كتاب «فلسفة الزِن في الأدب الإنجليزي» قال:

«أجل أعرف ذلك، ولكن عندما نقتل الخضراوات فإنها لا تصرخ -بصوتٍ عالٍ-» بعبارةٍ أخرى فإن ذلك ما أوضحه منهج الهيمسا الذي يتبناه الرهبان البوذيون والهندوس والذي يعني «عدم الإيذاء أو إلحاق الضرر بأي كائن حي»، ذلك المنهج الذي يجعلهم يواصلون النظر بأعينهم أرضًا أثناء المشي، وذلك ليس لتَجَنُب إغراءات النساء الجميلات، وإنما لتَجَنُب احتمالية دهس الخنافس أو الحشرات أو الديدان المتواجدة في طريقهم.

يجدر بنا الإشارة إلى أن هذا الأمر يحمل معنى مُراوغًا بين طياته، فهناك إشارة ضمنية إلى رمزية تلك الحياة التي نعيشها -دون شك- من خلال عملية القتل المذكورة.

ينبغي لي القول أيضًا إنه أثناء مُراجعتي لتلك الحسابات المُتعلقة بضميري ووجداني وما أؤمن به، سألت نفسي كيف يتعين عليّ الاستجابة لهذا المأزق، وحينها قد وجدت لتوي ثلاث إجابات حاضِرَة.

أما الإجابة الأولى فهي أن أعترف أن قرار العيش يعني بدوره مُباركة قرار القتل، هذا الأمر الواضح الذي لا يخفى على أحد بلا شك، لهذا السبب فقد قررت أن أقتل، وعقدت العزم أن أقوم بذلك بكل مهارة واحتراف، فكر في مقدار هذا الألم والكرب الذي قد يشعر به شخص ما قام رجل آخر بقطع رأسه في مُنتصف الطريق دون أن يقتله تمامًا، لذا يتعين أن يكون الموت سريعًا قاطعًا، فتلك اليد التي تحمل البندقية أو السلاح أو السكين ينبغي لها أن تكون واثقة وألا ترتعش (على أي حال فأنت لا تريد أن ترى جراحك يشعر بالأسف والقلق بشأنك لأنه يقوم بفتح معدتك بيدٍ مُرتعشة!).

أما الإجابة الثانية فهي أنه يجدر بنا أن نردد تلك العبارة لأي كائن حي يلقى حتفه في سبيل تناول الطعام، تلك التي تقول: «أحبك كثيرًا إلى حد إنه بمقدوري أكلك!»، تلك التي قد تليها عبارة أخرى ساخرة تحمل نفس الصياغة والتي تقول:

«إنني أتناولك بهذا القدر الذي أحبك به».

هذا المصطلح الذي أهمله الصيادون والمزارعون الصناعيون في الماضي وكذلك يتجاهله صيادو الأسماك في يومنا الحالي، ويمكننا هنا أن نكتفي

بالاستشهاد بمثاليين فقط، أما الأول فيتمثل في تقنية صيد الحيتان التي باتت تُشكل خطورة على وجود الحيتان ذاته، كما أن تقنية تربية الدواجن الصناعية على وشك أن تُغرِق السوق بوجود كميات هائلة من البيض الزائف، فتلك الطيور المسكينة البائسة تعيش في الخلايا السلكية الخانقة وتتغذى على المواد الكيميائية وغير مسموح لها بالتجول تحت أشعة الشمس، كما أنها تحمل نفس المذاق الزائف الاصطناعي بناءً على ذلك، فتلك اللحوم التي تبدو لك غير مُفضلة على الطاولة كانت تحيا حالة تخلو من الحب في المطبخ والمزرعة.

أما الإجابة الثالثة فقد عبر عنها المُخترع والروائي الصيني لين يوتانغ بقوله:

«إذا قُتِلَت دجاجة ما وتم طهيها بشكلٍ غير جيد فهذا يعني أنها قد ماتت دون جدوى، فأقل شيء يمكنني القيام به من أجل كائن مات من أجلي هو أن أقوم بتكريمه، ليس من خلال طقوس فارغة جوفاء، وإنما عن طريق طبخه بكفاءة والاستمتاع به بالكامل، ولهذا فإنه يجدر بي التعامل مع أي كائن حي آخر نفس مُعاملتي لنفسي، إذ أن كل كائن مِنا يُمكنه أن يحل محل الآخر أو يقوم بدوره.

إن هذا الحب اللائق للحيوانات والنباتات وغيرها من المواد الأخرى التي تعتمد عليها الحياة بشكلٍ رئيس يبدأ من الرعاية الموجهة في المطبخ، ومع ذلك فإن نظر الواحد مِنا الآن إلى المطبخ الأمريكي أو البريطاني في المدة الراهنة فإنه لا يجده مكانًا مُلائمًا للحب! إنه يبدو عالقًا في إحدى زوايا المنزل الضيقة الخانقة تمامًا كما غرفة المرحاض أو الجراحة، بيضاء باردة غير مُرَتَّبَة، على الرغم من أنها في بعضِ الأحيان تبدو لامعة ونظيفة، فبعض المطابخ وسائل للراحة تمامًا كما غرف المرحاض، فتجدها منظمة بكل إخلاص، وتبدو لك وكأن مجرد النظر إليها يُشبعك، فهذا الأمر جيد بالنسبة لك في نهاية المطاف، فكل شيء يأتي إليك من

هذه المطابخ يظهر وكأنه نظيفًا نقيًا مُطهرًا، فهذا هو القانون في معظم المعادلات الرياضية الدقيقة:

مطبخ باهت غير مُلَوَن= طعام غير شهي.

فتلك المطابخ البشعة الشنيعة ليست نتيجة الفقر. إنها تعكس حقيقة أقوى وأغنى حضارة على الأرض تلك المصحوبة بتوفير الوقت وكسب المال.

إن تلك الفكرة الأكثر قبولًا والتي تقول إن الأمريكيين ماديون هي محض هراء، إذ إن الشخص المادي هو من يحب المادة، كما أنه يُكرس جهوده للاستمتاع بالحضور المادي الفوري الحاضر، وطبقًا لذلك التعريف فإن معظم الأمريكيين أشخاص تجريديون. إنهم يكرهون المادة، فهم يقومون بتحويلها إلى جبال من النفاياتِ وسحابات من الغاز السام.

جدير بالذكر أننا كأشخاص نحيا دائمًا على أمل أن يكون لدينا مستقبل، ولانغماسنا في هذا الأمر وحده فلن يكون لدينا حاضر على الإطلاق. وحدهم أولئك الذين يملكون حاضرًا باستطاعتهم ربطه بالحاضر الفوري بمقدورهم تقديم الخطط من أجل المستقبل للاستمتاع بالنتائج، على نقيض أولئك الذين يُثبتون أعينهم على مستقبل بعيد لن يأتي إليهم أبدًا، فإنهم يُدمرون الحاضر للأبد كما أنهم يُهلكون هذا الفيتامين الغني المعروف باسم «الخبز» أيضًا في طريقهم، فمن الممكن أن يتعلم المرء الكثير عن الحضارة من خلال مواردها الغذائية الأساسية، وفي حالتنا تلك من المفترض أن يكون الخبز هو ما نقصده بدورنا بالغذاء الأساسي، فالخبز الحقيقي هو مادة صلبة قشرية مُفعمة برائحة خير مطابخ المزرعة ومطاحن الدقيق وأكياس الحنطة وحقول الحبوب الخضراء والذهب

والنسيم الهادئ في ظهيرة يوم صيفي بطيء.

ثمة قلة من الأمريكيين ممَن كان لديهم مثل تلك الارتباطات، لكن الصورة التي ظهر عليها رغيف الخبز لم تشر بدورها إلى ذلك، إذ إن الرغيف مُنعدِم الوزن محقون باللب الإسفنجي المسامي والمواد الكيميائية الغذائية المزعومة، فلم يكن لونه أبيض بقدر ما كان باهتًا يخلو من أي لون، فلم يكن مُناسبًا لأي ذائقة. بدا رغيف الخبز مضغوطًا من أثر فقاعاتِ الهواء، فكل واحدة منها تشتمل على قطع بلاستيكية صالحة للأكل، والتي تم توليفها من القمح أو الشعير، كما أنها تحصل على بروتين الكازين من الحليب، وعند مُلامسة المادة السائلة تصبح أقرب إلى قوام المرق أو اللعاب، فهذا الغطاء البلاستيكي يتحول إلى عجينة بالسائل الأبيض الذي يتم إطعامه للأطفال الرضع، هذا السائل الذي يبصقه الطفل بمجرد أن يتذوقه!

بادئ ذي بدء، يمكنني القول إن تلك الحكاية تبدأ منذ زراعة القمح في جوٍ يخلو من المحبة العامة من جانب المزارع الصناعية وسط ملايين من الفدادين الخالية من الأشجار بالأراضي القاحلة لولايتي كنساس ونبراسكا ثم يتم رشها بالأعلى عن طريق الطائرات النفاثة ثم يشرع المُزارعون الصناعيون بجرفِ وجه الأرضِ بآلاتٍ ميكانيكية هائلة ضخمة وتبدأ مرحلة طحن الحنطة وغسلها بالمُنظفات ووضع المبيدات المُطهرة فوقها ثم تحويلها لأطنانٍ من الفطائر.

ففي مصانع الخبز الآلية تمتزج جبال هائلة من غبار الطباشير مع حمض البانتوثينيك والبيريدوكسين وحمض البارا أمينو بنزويك ومكسبات الطعم والمُنكهات الاصطناعية. في البداية تأخذ العجينة أشكالًا تكتلية وتملؤها الفقاعات ثم يتم تقطيع الخبز ولَفه بداخل ورق القصدير ثم يُرسَل للشحن في

هيئة وسائد مُهَلهلة قابلة للتلف.

قد تظن أنني أُبالغ، ولكن طبقًا للعدد الأخير من المجلة العلمية الأمريكية، حصل أحدهم على براءة اختراع لعملية صناعة الخبز الدائمة والتي قد تلتها موجة ترويج كثيفة لأعدادٍ هائلة من الأفران الإلكترونية.

بعد مرور عدة سنوات تالية، اشتكى أحد القراء من هذا الخبز المزعوم وقدم شهادته في مجلة «تقارير المستهلك»، والتي كانت مجلة رائعة مثيرة للإعجاب، وقد صُمِمَت لحماية مُشتركيها من التَعَرُض للخيانة والخداع في السوق التجاري، وبدلًا من إرسال المُنتَج للتحكيم بخصوصه من جانب الظهاة الخبراء والذواقين، قامت المجلة بإرساله لاختصاصي التغذية والذين قد أخضعوه بدورهم إلى التحليل الكيميائي الذي أفاد أن تلك المادة البائسة «غنية بالفيتامينات والمعادن المُغذية»

يبرز هنا على وجه التحديد اللب الرئيس للمشكلة، فنحن نخلط بين النظام الغذائي والدواء والطهي وفقًا لعلم العقاقير، وبناء على ذلك فقد جاء تقرير فئات التغذية مُناقضًا لما قيل من قبل، فجهة التحكيم الأولى قامت بفحص المادة من خلال أنبوب اختبار، بينما قامت الجهة التحكيمية الأخرى بالفحص من خلال الاعتماد على الأنف واللسان، وقد كانت اللافتات الموضوعَة على عبواتِ الطعام شبيهة بتلك الموضوعة على عبوات الدواء، ربما أنت لا تملك أدنى فكرة عما يعنيه ذلك، ولكن بالطبع كل تلك الملاحظات العلمية والمطبوعات الدقيقة تصب في مصلحتك في نهايةِ المطاف، فمَن يقومون بتقييم الطعام والحُكم عليه أشخاص نظريون رياضيون أكثر من كونهم ماديين بطبيعة الحال، وهذا هو السبب الذي يدفعني على وجه التحديد للتصريح بأن الأمريكيين ليسوا أشخاصًا

ماديين بل تجريديين.

جدير بالذكر أن تلك الأدوار المُتناقضة المُتعارضة للطُهاةِ وأخصائيي التغذية لا تبدو أشد وضوحًا إلا في مؤسسات مثل المستشفيات والجامعات، ففي عملي الخاص اضطررت مرارًا لتناول الغداء أو العشاء في مقاصِف الطلاب الجامعية في كل أرجاء البلدة، فجميعها كانت مُتطابقة، إذ أن الوجبات اشتملت على براد الثلج الصغير والخس وقطعة من جبن الماعز وقطعة أناناس مُعلَبة، وشرائح اللحم البقري الساخنة المطهية جيدًا، والتي قد عانت لساعاتٍ بعد غسلها بالموادِ المُطهرة ورشها بمعجونٍ ذو طعم غريب وتغليفها بمذاقٍ مكعباتِ المرق الجاهزة، بالإضافة إلى البازلاء والذرة والجزر المسلوق، وشطيرة بنية اللون موضوعة على لوح قذر مُغطاة بمواد لزجة وسكر القيقب، ناهيك عن تلك القطعة من الورق المُقوى المُعاد تشكيله والتي يعلوها مخفوق القشدة الأقرب إلى مذاق معجون الحلاقة محلي الصُنع.

يجدر بنا القول إن تأثير تلك المأكولات والوجبات على الحياة الفكرية للشعوب أمر كارثي مُفجِع! فما دامت السياسات الأكاديمية الجامعية قائمة على فكرة التصارع والتناخر الدائم، فإن علم الاقتصاد المنزلي وعلوم التغذية سوف تمضي في طريقها على هذا النحو للتآمر لحرمان المؤرخين والرياضيين واللغويين وعلماء الأنثروبولوجيا من مُتعة الحياة من خلال جعل طُلاب الجامعة والباحثين يعتادون هذه الفكرة العبثية القائلة بأن هذا النوع من الوجبات غير المُلهمة بمثابة الطعام المثالي اللائق لهم.

تتمثل المشكلة الرئيسة في أن اختصاصيي التغذية سابقي الذكر ممَن يُشرفون على الطهي وكذلك هؤلاء الموظفون البائسون الذين يعملون في

مجال إدارة الأغذية والعقاقير في وزارة الزراعة ممَن يقومون بفحص المُنتجات المُزيفة ويمتلكون القدرة الدائمة على إثبات حيازة تلك الأطعمة على كمياتٍ البروتينات والكربوهيدرات والمعادن والفيتامينات الكافية، لكن الأمر أشبَه بتقييم جودة موسيقى ما من خلال الحكم على وحدة القياس السمعية وتردد الموجات!

كأن نقول «هذا المُنتَج لا يُلحِق الضرر بالأذن البشرية.»

تلك العبارة التي تُشعرنا بالراحة بالطبع، وتجعلنا نتحمل وجود الشيء نفسه والتعامل معه لمدة زمنية طويلة، والسؤال هنا ما هي تلك الأشياء «الجيدة» التي نطمح إلى تحقيقها من خلال تكرار الأفعال التي يُفترَض كونها «مفيدة» لنا؟

هذا السؤال المحظور والذي يُشكل خطرًا هائلًا على الاقتصاد بأكمله، كما أنه قد يؤدي إلى تداعي النظام الاجتماعي، فالإجابة تتمثل في أن تلك الأشياء الجيدة التي نتطلع إليها تتواجد دومًا في المستقبل، ولأنه لا يمكننا الانخراط في هذا الحاضر المادي الملموس؛ فإننا نصبح أكثر سعادة عندما نميل للاعتقاد أن الأشياء الجيدة سوف تحدث لنا فيما بعد، وليس لحظة حدوثها الفعلية، وبناءً عليه فإننا نحصل على تلك الدفعة المُباغتة للركض خلف الملذات لأنه يتعذر علينا الوقوف لبعضِ الوقت حتى نستمتع بتلك المباهج التي نلتقيها في طريقنا، ولذلك فنحن نمثل صورة الحضارة التي تُعاني من خيبة أمل مُزمنة -تمامًا كسرب هائل من الأطفالِ المُدَللين الذين يقومون بتحطيم ألعابهم-.

بالنسبة لآذاننا على سبيل المثال، فإن هذا الادعاء القائل بأن الزمن غير موجود يبدو أمرًا جنونيًا غير معقولًا، فالوقت كما نقول هو المال، وهذا الأمر صحيح

من الجهة العملية التطبيقية، ومع ذلك فإنه من المستحيل أن تكون في الحالة الذهنية الصحيحة التي تؤهلك للطهي أو تناول الطعام أو القيام بأي بعمل فني آخر يستهدف المتعة دون أن تدرك بداخلك أن الوقت مسألة مُجَرّدَة بحتَة.

هناك بالفعل شيء يُدعى «التوقيت» والذي يعني «فن حساب الإيقاع»، لكن التوقيت والعجلة أمران مُتناقضان تمامًا كما العلاقة بين الطُهاة وأخصائيي التغذية، فالوقت تبعًا لنظامِ الساعة يعد مجرد طريقة للقياس تم اتباعها بشكلٍ مُشترك في كافة المجتمعاتِ المُتحضرة، مما يُكسبه نوعا من أنواع «الواقعية» أو «غير الواقعية» تمامًا -كما هو الحال- مع خطوط العرض والطول المُتخيلَة.

Telegram:@mbooks90

فخط الاستواء -على سبيل المثال- غير مُجدٍ على الإطلاق على الصعيد العملي الواقعي، وبالنظرِ إلى نظام الساعة فإن اللحظة الراهنة ما هي إلا خط شعري لا يملك أي عرض أو اتساع، وليس هناك شيء ثابت بشأنها سوى أنها تصبح غير مرئية فحسب، فإذا كنت مهووسًا مسحورًا بنظام الساعة، فستظل بدورك واقفًا جامدًا مكانك في تلك المنطقة لأنه ما من حاضر لديك بتلك الطريقة، فما الآن إلا نقطة هندسية من خلالها يصبح المستقبل ماضيًا! لكن إذا كنت تشعر بالعالم المادي من حولك جيدًا فإن سوف تكتشف أنه ليس هناك أي شيء حدث أو سيحدث عدا تلك اللحظة الراهنة التي تحياها فحسب.

إن السر وراء خلق أي عمل فني إبداعي جيد هو أن تستشعر أثناء قيامك به في اللحظة الراهنة بأبديته، فذلك الأمر هو ما يصنع التوقيت المُناسِب. لا داعي للعجلة. تلكأ قليلا. فقط امضِ مع هذا التدفق للأحداث من حولك كما لو كنت ترقص على أنغامِ الموسيقى دون أن تحاول أن تتجاوز الزمن أو أن تتخلف عن الركب، فالعجلة والتأخير وسائل تستهدف مقاومة اللحظة الراهنة الحالية، هذا

الأمر الذي يظهر في مجال علم الطهي من خلال الطعام الفاسد، فأن تحاول أن تجد وقتًا يعني أن تمضي بخطى سريعة قدر المُستطاع نحو المستقبل، الأمر الذي يمنحك «طعامًا تجريديًا» وليس «حقيقيًا ماديًا» فالقهوة المُعدة على عجل على سبيل المثال تعد عقابًا لمَن يحاول بلوغ المستقبل بسرعة!

هناك طريقة أخرى لتناول قائمة الطعام بدلًا من الوجبة ذاتها وهي تفضيل المال على الثراء! هذا النوع من الاضطراب النفسي المُرتبط بحالاتِ الهلوسة التي تقول إن الزمن واقع فيزيائي مادي، وحتى نكون مُنصفين بخصوص هذا الأمر، يتعين علينا القول إن هناك بعض المنتجات الغذائية الممتازة المطروحة للبيع في الأسواقِ التجارية، ولكن ما الذي يحدث إذا كنت شخصًا مهووسًا بالمال؟

إذا كنت كذلك فإنك ستقوم بدفع عربَة التسوق الخاصة بك الممتلئة بالكامل ناحية المُحاسِب الذي سينقر بدوره على شريطٍ من الورق ويقول:

«ثلاثون دولارًا وخمسة وعشرين سنتًا من فضلك.»

ها هو الإحباط يغمرك الآن فجأة لأنك سوف تضطر للاستغناء عن جزء من «ثروتك» دون أن تُدرك أن ثروتك الآن تتمثل في أكياس التسوق! وأنت مضطر الآن لأن تخرج برفقتها، فالمال بالنسبة لك يعادل «المستقبل»، «أن تحظى بالوعد القادم لتحصل على المال»، تلك الفكرة التجريدية البحتة التي تحولت الآن إلى لحظة راهنة حالية وواقع مادي!

ها أنت تشعر بالبؤس لأنك استبدلت توقعاتك بإمكانية حدوث الأشياء الجيدة ببضاعة حقيقية! تمامًا كما أن الوقت وسيلة لقياس الحركة، فإن المال هو وسيلة قياس للثراء المادي والقوة. إنه بمثابة الإمساك بالدفاتر، وعندما يصبح هذا الأمر

٢٧٠٨١٥٤٢٠٦

غير مفهوم، فإن الطريقة الوحيدة الآمنة هنا التي تتبعها أي دولة ضخمة هو أن تقوم بخداع المُستهلك تمامًا كما حدث في مدة الكساد العالمي بسبب نقص المال، فالحضارة المُكرّسَة لخدمة الأفكار والنماذج التجريدية الرياضية لا تتمكن إلا من اتباع تلك الاستراتيجية حتى تقدر على كسب قدر أكبر من المال في أقل وقت ممكن، فطريقتها الوحيدة هي القيام بخيانة المُستهلك كأن تبيع له صورا متعددة من الفراغ، مع الحرص على وضعها في طرودٍ أنيقة! أو أن تقوم برش ثمار الطماطم بمادةٍ شمعية حتى تكتسب مظهرًا جيدًا، وحينها وبعد أن تتمكن من جمع المال لا تتمكن من شراء أي شيء به. أتعرفون لماذا؟ لأن الجميع يمارس أعمال الخداع ذاتها بنفس الطريقة!

إن صُلب المشكلة يتمثل في أننا نعيش في ثقافة مُنوّمة مغناطيسيًا مُشبعة بالرموز والكلمات والأرقام ووسائل القياس والكميات والصور، ولهذا فإننا نخلط بين تلك الأشياء وبعضها البعض ونفضلها على الواقع المادي الفيزيائي. إننا نؤمن أن الدليل على جودة الحلوى يكمن في التحليل الكيميائي وليس في تناول الطعام، فهذه هي النتيجة الكبيرة للنظام التعليمي الذي يحمل طابعا أدبيًا رياضيًا والذي يؤهل الجميع ليكونوا موظفين وبيروقراطيين، وليمنح الأشخاص الأكثر غباءً منهم من حيث التقدم الفكري عقود العمل في المجالاتِ الفنية!

إن المسألة هنا لا تخص ما يُعرَف بكرامةِ العمل وإنما تتعلق بدورها بتلك الثقافة الغريبة، التي لا تُلائمها كلمة «ثقافة» ما دامت لم تنجح في توفير تدريب فكري متطور في كافة ميادين الفنون الأساسية للحياة والتي تشمل الزراعة، والطهي، وتناول العشاء، وارتداء الثياب، وعملياتِ التأثيث وممارسة الحب، فتلك الفنون لم تُعززها قوة المهارة والشغف، وبناءً عليه فإن قضاء الوقت في

ممارستها أمر مُهدَر بلا طائل.

فالمحال التجارية خالية من أي شيء إلا النفاياتِ والمخلفات، تلك التي يعمل على جمعها مجموعة من الأشخاص المُستعبدين الذين يبقون أعينهم مُثبتة على الساعة فقط من أجل الحصول على مزيدٍ من المال النقدي. لم يعد هناك وظائف يبتهج أفرادها بالقيام بها بغية المُساهمة الجادة في إنتاج ضرورات الحياة اليومية الرئيسة، فعلى الرغم من أن الشكل الخارجي للطائرة النفاثة والأدوات العلمية مُذهِل رائع غير أن المنازل والسيارات وأحواض الاستحمام والأقمشة والمجوهرات وأدوات الخزف والأسِرّة والإضاءات وغيرها من التجهيزات الأخرى بمثابة إخفاقات واضحة للخيال البشري! (بالمناسبة، إذا أردت أن تحصل على أواني زجاجية أنيقة أو جِرار أو كؤوس أو زجاجات، يمكنك شراؤها من تاجر بأحد معامل المُختبرات!).

ففي عالم تملأه الرموز والأفكار التجريدية البحتة، تلك التي تُفهَم من خلال التعبير بكلماتٍ مُنفصلة ومُفَككَة، فإن الإنسان أشبَه بشيءٍ مُنعَزل وسط بقية الأشياء الأخرى.

إن هذا الشعور المُحدد بالوجود الشخصي للمرء هو محض وهم، إذ إن علم البيئة المتخصص في دراسة علاقة الكائنات الحية ببيئتهم المُحيطة يُبرهن مما لا يدع مجالًا للشك أن الكائن الحي في عملية تدفق مُستمر مع بيئته من خلال تيارٍ دائم أو مجال أو طاقة، ولرسم مجال أخلاقي جديد في هذا السياق يمكننا أن نضرب مثالًا بالنحل والأزهار، فمع أنها كائنات مختلفة عن بعضها البعض، إذ إن أحد تلك الكائنات متأصلة راسخة في الأرض يفوح منها العطر، بينما تتحرك الأخرى بكل حرية وتُحلق في الهواء وتطن، لكنها كائنات غير قادرة على التواجد

من دون بعضها البعض، ولهذا يمكننا اعتبارها تمثل جوانب مختلفة لنفس الكائن الحي، كذلك الحال بالنسبة لتركيبنا الجسدي، فمع أن رؤوسنا مختلفة جدًا عن أقدامنا من حيث الشكل، إلا أننا نعتبرها تدخل ضمن ملكية واحدة لفرد واحد لأنها مُتصلة جميعًا بالجلدِ والعظام، وهذا لا يعني أن الاتصال الأقل وضوحًا يلغي بدوره حقيقية الشيء وماديته، فعلى سبيل المثال ليس هناك أوتار لتربط تلك الجزئيات المُنتشرة على نطاقٍ واسع في يديك، كما أنه لا توجد أي مادة مرئية لتوحد تلك النجوم الفردية المُنتشرة بالأعلى والتي نُعرفها باسم «المجرة» ومع ذلك فإن البشر المُتحضرين يجهلون بصورةٍ عجيبة فكرة اتصالهم وتناغمهم مع بيئاتهم الطبيعية المُحيطَة، فمن الضروري أن نمتلك الهواء والماء والنباتات والحشرات والطيور والأسماك والحيوانات الثديية حتى نمتلك عقولًا وقلوبًا ورئة ومعدة، فتلك الأشياء السابقة بمثابة أعضائنا الخارجية كما أن الأشياء التالية هي أعضاؤنا الداخلية، فإذا كان بمقدورنا العيش من دون تلك الأشياء الخارجية، فإنه باستطاعتنا كذلك أن نحيا في ظل هذه الأشياء الداخلية التي تسكننا، وبناءً عليه فإن تلك الكلمة «أنا» أو «ذاتي» تحمل كلا الجانبين، إذ إن الشمس والأرض والغابات تشتمل على الكثير من ملامح وسمات جسدي وعقلي.

إن مسألة تآكل التربة أقرب إلى مرض ذاتي مثل الجُذام، كما أن وجود العديد من المجتمعات النامية يعد أمرًا كارثيًا تمامًا كما السرطان.

لقد فقدنا إحساسنا الفطري بتلك الفكرة الواضحة كنتيجة طبيعية لحالات الاعتياد المُزمنة التي خضعنا لها منذ قرون طويلة والتي جعلتنا نؤمن أن الذات البشرية بمثابة مظروف من الجلد يحوي عدة محتويات بداخله فحسب، فالمهم هنا هي تلك الأشياء الداخلية للمرء وليس تلك الأشياء والعناصر الخارجية! هذا

التعريف شديد الحمق، الذي يخسر منطقيته -شيئًا فشيئًا- كلما حاولت جاهدًا أن تتخيل ذاك المحتوى الداخلي دون مُحيطاتٍ خارجية، كما أنه لا يستقيم للعقل أن يتصور وجود مُحيطاتٍ خارجية دون محتوى داخلي، فأن ترى بوضوح يعني أن تتبنى موقفًا عقليًا جديدًا تجاه العالم المادي، والذي يشتمل أولًا على تقدير واحترام عميق شامل لكافة تلك الروابط المُعقدة المُتشابكة بين كافة المخلوقات والتي يعتمد عليها كل كائن حي، وكذلك يتضمن في المرتبة الثانية ذلك الشعور بالحب والبهجة لكون هذا العالم امتدادًا لجسدك.

صحيح أن هذا العالمَ يبقي على ذاته من خلال عمليات القتل والأكل المُتبادَلة إلا أنه مع تبني أسلوب جديد للجريمة في الحظائر والمزارع لن يكون هناك تفاقُم في جريمة المطبخ أو في وجود المسكن الهائل سيئ التصميم أو عند رؤية تلك الأساليب الصناعية البديلة للشمس والهواء، ولذلك فإن المطلب الأساسي لإتقان فن الطهي هو وجود قصة حب مُلتهبة بين الطاهي والمواد التي يستخدمها في عملية الطبخ كأن يشعر بملمس وشكل البيض، وأن يشم رائحة الدقيق أو النعناع أو الثوم، وأن يتأمل هذا الشكل المُذهل الرائع لسمك الماكريل، وأن يتحسس الملمس الزخامي لشريحة اللحم البقري، وأن يغرق وسط هذا اللون الأخضر للخس الداكن وأن يُمَتِع عينيه بالنظرِ إلى شرائح البصل وأن يستشعر دفء ومرونَة العجين المُغطى بالدقيق أسفل أصابعه، وسوف يشهد هذا الأسلوب الروحي للطاهي حالة ثراء مُدهشة إذا نجح في تعزيز وخلق جو من الأُلفَة والود مع الحظائر ومزارع كروم العنب، وأرصفة الصيد، ومزارع الأبقار، وبساتين وحدائق المطبخ.

لا يمكنني أن أنسى أبدًا تلك الذكرى الرائعة التي تُبهج قلبي كلما عانقتها

ذاكرتي، تلك التي أسكنتني في حالةٍ من النشوة عندما وقعت عيني على صف من أوراقِ البلوط أسفل ضوء القمر الفضي بمُنتصف الليل، لقد بدا المشهد وكأنه جزء من بانوراما راقصة لتلك الأوراق المُمتلئة بقطراتِ الندى الدقيقة، أفكر الآن في أن أختبئ بين حبات محصول الفاصوليا تمامًا كما الطفل الصغير، هناك حيث بمقدوري الوقوف أعلى أكوام القش والفضي لأتأمل لونها الأرجواني ولأرى تلك الثمار الجافة تُخبئ نفسها بين أشجار الكروم.

من المُفترَض أن تتسم عملية إعداد مأدبة الطعام ذاتها بالبهجة، فبهذا النحو تكتسب الأطعمة المُقدَّمَة مذاقًا شهيًا يجعل المرء يشعر أنها تستحق أن يُبادِر بتناولها على الفور، فالطاهي في تلك الحالة يصبح أشبه بالكاهِن الذي يُقدِم التضحية، كما أن الموقد يتحول إلى المَذبَح المُقدَّس الخاص به، وبناءً على ما سبق فإنه يجدر بالمرء أن يتحلى بالقدرة التامة على استيعاب كافة التفاصيل، والتفاني في العمل حتى يتمكن من القيام به بشكلٍ ساحر جاذب للانتباه، فإذا لم تعتد يومًا أن تُعبر عن كامل امتنانك وتقديرك لامرأة جذابة حسناء أو أن تعزف بطريقة مثالية على آلةٍ مُذهلة وغيرها من الأمور المُتسِمَة بالكمال فإنك لن تمتلك القدرة على إنجاز أي مهمة بخبرة كافية واهتمامٍ واضح بتلك الطريقة التي يُمسِك بها الجراح أدواته الدقيقة الحساسَة أثناء إجراء العمليات الجراحية أو كما يقوم تاجر المجوهرات بإصلاح ساعة ما أو عندما يتأهب الطيارون للحظةِ الإقلاع.

هذه الطرق السابقة الذكر هي ما تقوم بدورها بتشكيل صورة الحضارة التي نعمل عليها، إذ إن الأخيرة وفقًا لهذا التعريف هي عبارة عن نظام يضم مجموعة من الشاشات التي تعمل على إخفاءِ الصلات والروابط بين الأحداث، فهذا

يعني أن يصبح كل شيء مُستقل باهت تمامًا كأن يُقَدَم الخروف المشوي على طاولةِ الغداء بطريقة جامدة آلية تُوحي بعدم وجود أية علاقة مرئية بينه وبين المطبخ، وكأنه يخلو تمامًا من طاقة الطهي والرعاية والمحبة السالفة، الأمر الذي يُشبه أيضًا الطريقة التلقائية الأوتوماتيكية التي يجلس بها أطفال اليوم حول الطاولة بصورة تخلو من المحبة الحقيقية والأُلفَة والشعور الحميمي الذي يربطهم بأسرتهم سوى أن يكونوا مجرد نِتاج لتلك الأسرة يتم التعامل به بشكلٍ جامد يخلو من أية طاقة أو روح، الأمر يُشبِه أيضًا شرائح اللحم المُقَدد التي تتم تعبئتها في الأسواقِ التجارية والتي تبدو على الصعيد العملي بعيدة كل البُعد عن اللحوم المعروفَة، وإنما يُشبه مذاقها مذاق ثمار التفاح! فهي تظهر وكأنها مُنسَلِخَة تمامًا عن عالم القطيع!

من المُفتَرض أن تحمل المنازل بشكلٍ عام علاقة ظاهرية تربطها بالكائن الحي البشري، هذا الأمر الذي يظهر بدوره في طريقة تأثيث غرف المنزل وتشكيلها وكذلك تقسيمها، فتلك المسافات التي تفصل بين غرفة وأخرى ينبغي أن تُوضَع في الحسبان، كما يجدر بمنازلنا المُعاصرة أن تنعم بالاستقلالية والخصوصية، وفي نفس الوقت ينبغي أن يحرص القائمون على أعمالِ البناء على إظهار القيم الإنسانية المُشتركَة، الأمر الذي تعكسه مزيد من الحضارات من خلال اهتمامها بعملياتِ التشييد والبناء من خلال منازلها وأماكنها السكنية مثل دولة اليابان التي تقوم بتلخيص جزء كبير من حضارتها العريقة من خلال هذا الأسلوب الحضاري المعماري.

جدير بالذكر أن تلك الترتيبات المنزلية ليست صورة من صور الرفاهية، بل إنها تقوم بتأدية وظائف بارزة: فإما أن تقوم بتعزيز الشعور بالعقلانية والاستيعاب

والحس المُتحضر أو أن تعمل على تنمية الوهم بداخل أرواحنا.

إن وجود «غرفة المعيشة» في كل منزل اليوم لا يرجع بدوره إلى رغبتنا في أن ننعَم بجوٍ من الأُلفَة معًا، وإنما يعود ذلك إلى رغبتنا العاجلة للاختباء بتلك الغرفة عقب تناول وجبة ما، فنحن هنا لا نهرب من الوجبات ذاتها وإنما نهرب من وجودنا البيولوجي، ربما كان من الممكن أن يكون اختباؤنا في تلك الغرفة مُفيدًا أمينًا صادقًا فقط لو كانت تلك الغرفة «مكتبة»، هذا المكان المُنعَزِل المُخَصص للحياة الفكرية التثقيفية، ولكن في بلاد لا تدعم وجود سوى ألف متجر للكتاب فقط ستتحول القليل من الغرف المعيشية إلى مكتبات.

يجدر بنا الإشارة أيضًا إلى أن وجود تلك الغرفة المركزية الرئيسة في كافة المنازل العصرية اليوم يعد في حد ذاته إهدارًا لمساحة هائلة دون طائل، إذ إن أصحاب المنازل يقومون بتأثيث تلك الغرف على أحدث طراز، ويقومون بدورهم بتزويدها بالأثاثِ المُكلف غير المُريح، اللازم لاستقبال نمط معين من الناس المُصطنعين المُتكلفين الذين يشعرون بالخجل الداخلي من أجسادهم المادية.

دعونا نتحدث الآن عن المقاعد ودورها في المنازل العصرية.

فإذا تساءلنا: ثُرى ما هو المقعد أصلًا؟ سنجد أن المقعد هو مجرد عامل مُساعد قد ابتكرناه ليُوضَع إلى جوارِ الطاولة تلك التي يُمثلها سطح مرتفع نظيف مُرَتَّب يُستخَدَم من أجل تقديم الطعام حتى لا نتعثر بدورنا في الأطباق، وكذلك خوفًا من أن تقوم الحيوانات الأليفة مثل الكلاب والقطط المُشاكسة أو الأطفال الرُضع بمُقاطعتنا حينها، على الجانب الآخر تعد مسألة الجلوس في غرفة المعيشة المُنعزلة بمفردنا أمرًا بالغ السوء، فهذا المقعد الماثل هناك والذي يأخذ شكلًا

مُحدبًا يبدو وكأنه يدعم أجسادنا جراحيًا لكونها لا تتكيف مع فكرة الجلوس على الأرض، لكن تلك المقاعد الوثيرة شديدة التكلفة المُنتفِخَة تُمثل نوعًا هائلًا ملموسًا من المُبالغة وكأننا نرغب في إخفاء شيء ما بتلك السطحية الضخمة، تلك التي تفقد قيمتها شيئًا فشيئًا لكونها غير مُحددة الغاية والمعنى، فهي تبدو كتلك الزخارف غير المُجدية المرسومة على البنادق.

جدير بالذكر أن تلك التضييقات المُحددة تنطبق بدورها على معظم الأسِرة العصرية في يومنا هذا، فتجدها مُزودة بالمفروشات المُكلفة وألواح الرأس والأقدام الضخمة وكذلك شبكة من الستائر والأسلاك الكثيفة التي تتوافق مع نوع وجودة وطبيعة الأقمشة والأغطية المُستخدمة في تلك الغرفة.

إنها أيضًا تُفسِح المساحة لإهدارٍ مُماثِل لوضع الثياب المُتسخة في جانبٍ آخر من الغرفة، والذي يتم تخصيصه لذلك الغرض، ناهيك عن وجود الخزانة الطويلة المُغلقة في إحدى الزوايا، وأنواع مختلفة من السجاد وأدوات التنظيف والصابون التي تستخدم في إنجاز المهام المنزلية اليومية، بالإضافة إلى هذا الكم الإضافي من الوسائد والألحفة والبطانيات الكهربائية ذات النمط الياباني وعدد من الأرفف الموضوعة على الأرض.

تكمن المشكلة الرئيسة هنا في أن منازلنا تكشف عن حالة من نقص الكفاءة المادية والذكاء البيولوجي تمامًا كما الحال في عملياتِ الطهي ونسج الملابس وحياكتها، فهي تبدو وكأنها مُصَممَة لتشجيع الكائنات الحية على الوقوف جامدين في أماكنهم بدلًا من التحرك والمُضي قُدُما، ولهذا السبب نحيا حالة من الفوضى يحاول فيها الثجار الذي يعملون في تلك المجالات استغلال مشاعر الاحتياج والعوز لدى كافة الأفراد لإظهار أشكال إضافية من أشكالِ المُبالغة فيما

يتعلق بتلك الأمور لخلق حالة من استعباد ملايين البشر لمسألة الوفرة والمساحة والفراغ.

إن الحل الأوحد الذي يمكننا طرحه الآن بغية الخروج من هذا المأزق الذي يحتل الصورة العامة لمنازلنا هو «العودة إلى المطبخ»، فمن هذا المكان على وجه التحديد يتطور المنزل ويمضي في طريقه لأن يصبح أشد اتساعًا وروعة، فعندما نضع المطبخ نصب أعيننا ونراه كمكانٍ رئيس للحياة والحب والدفء، سوف تفقد غرفة المعيشة هذا الدور غير المُجدي الذي تلعبه الآن، فهي تتطلب مساحة كبيرة، على الرغم من أنها تُساهم في تعزيز عُزلة أفراد المنزل كافة!

لكن الإشكالية التي تواجهنا الآن بشأن إعادة مكانة المطبخ بداخل منازلنا إلى سابق عهدها هي أنه ما من أحد يود العودة إلى هذا النوع من المطابخ الذي يتمثل في وجود مزيدٍ من أكوام الأطباق والأكواب القذرة، وكذلك تلك الطاولات المُسطحة المُمتدة والأحواض وأجهزة المطبخ، وألوان الحوائط الباهتة، والثلاجات الضخمة، ذاك الزحام الذي لا يمنح أفراد المنزل إلا مساحة صغيرة جدًا في المطبخ، وحينها يقتصرون وجودهم بداخل على هذا المكان على مدة تحضير الوجبات فحسب، تلك التي يقومون بها بآلية واضحة على مضض دون أن يضعوا فيها طاقتهم لتخرج بصورةٍ إيجابيةٍ مُماثلة. يتعين علي القول إن أدوات المطبخ قد شهدت بدورها تغييرًا كبيرًا للأفضل مؤخرًا ولكن مع دفع تكاليف أكبر بالطبع، ومع هذا كله يمكننا القول إن معظم المطابخ البريطانية والأمريكية لا زالت تشهد أبرز أشكال القُبح وذلك ليس نظرًا لقلة الأدوات وإنما لفقر المُخيلة.

تتمثل الخطوة الأولى في إزالة هذا الجدار الذي يفصل بين المطبخ وغرفة

المعيشة، الأمر الذي قام به معظم المهندسين المعماريين مؤخرًا، إنني لا أكتب تلك الخطوات الآن من أجل مَن يقومون ببناء منازل جديدة أو لا زالوا في مرحلة اختيار المنزل وتقسيمه كما يشاؤون، فبمقدور أي شخص يقرأ تلك التعليمات أن يقوم بتطبيقها على منزله تبعًا للظروف التي تتوافق معه، كما أنه يجدر بك أن تقوم بتخصيص مساحة صغيرة لحجرة غسل الأطباق والتي تتألف من رف واحد أو مجموعة رفوف لوضع الأطباق القذرة، وغسالة الأطباق الآلية، ومن الممكن أيضًا أن تشتمل المنطقة ذاتها على مُجَفِف ومعدات تجميد، ينبغي لنا القيام بعملية المزج تلك حتى يصبح كلًا من المطبخ وغرفة المعيشة كيانًا واحدًا، ويصبح بإمكان المرء الطهي وتناول الطعام والشراب والتحدث والغناء والاستماع إلى الموسيقى في مكانٍ واحد.

ربما كان هذا ما فكر فيه المهندسون المعماريون عندما قاموا بإزالة هذا الحد الفاصل بين منطقة المطبخ وغرفة المعيشة، ففي تلك الحالة سوف يتمكن الطاهي من الطبخ وإعداد الطعام من خلال البقاء مع أفراد أسرته في نفس المكان، مما سيترك بدوره كامل الأثر على تلك الوجبة التي يعمل على إعدادها، كما أن النقطة الأهم هنا تتمثل في رفع شهية أفراد المنزل من خلال مُراقبة الغداء أثناء مرحلة التجهيزات وكذلك شم رائحته اللذيذة التي لا تُقاوَم تجوب كل أرجاء المنزل، فهذا الجو العام من الدفء هو ما تسبب في إكساب حفلات الشواء الأمريكية والتي تتم برفقة أفراد العائلة أو الأصدقاء انتشارًا هائلًا في العالم، وكذلك الحال مع وجبة السوشي، والإعدادات السويسرية لأطباق الجبن المُميزة لديهم وكذلك كُرات اللحم وغيرها.

على الرغم من أننا نمضي لا محالة نحو العصر الإلكتروني والثورة الرقمية إلا

أنني راضٍ تمامًا عن هذا السِحر المؤقت الذي تُحدثه الثلاجة وغسالة الأطباق والخلاط الكهربائي وغيرها من الأدوات الحديثة، فأنا راضٍ تمامًا عن ماهيتها والهدف من استخدامها ولا أود الإفراط أكثر في عوالم التكنولوجيا فيما يتعلق بهذا الجانب على وجه التحديد.

يمكنني القول إن تلك الحركة المستمرة والرغبة في تطوير المطبخ وتزويده بمزيدٍ من المُستلزمات المتعددة قد أدخلتنا في مأساة إضافية، تلك التي تتمثل في استخدام «المواد البلاستيكية»، فلقد باتت مطابخنا تعج بتلك الأدوات في الوقتِ الراهن بصورةٍ كريهةٍ جدًا، تلك المعدات التي أثبتت الأبحاث العلمية المُتطورة أنها تستهدف إصابتنا بالأمراض الخطيرة على المدى البعيد كما أنها تقوم بتغيير المذاق الحقيقي الطبيعي للأطعمة والمشروبات، فهذا الماء الذي تشربه بعد وضعه في كوبٍ بلاستيكي يبدو كما لو كان ماءً ساخنًا مُقطرًا، كما أن هذا الطعام الذي تناولته بدورك بعد أن قمت بوضعه في طبقٍ بلاستيكي يفقد مذاقه الخاص شيئًا فشيئًا ويحمل نكهاتِ طعامٍ آخر في بعض الأحيان، تلك الأزمة التي لم نعد نلتفت إليها لكوننا نحيا تلك الحالة العامة من فقدان الوعي والشعور بكافة الأشياء التي تدور حولنا من خلال ركضنا خلف كل ما هو جديد وعصري دون النظر إلى قيمته وضرره أو نفعه على المدى البعيد.

إن البلاستيك هو ما يُمثِل تلك الصورة الهزلية للمادة في الحضارة الصناعية، كما أن الأمر تطور بدوره وبدأ يشمل تلك الأجزاء البلاستيكية التي شرع الجراحون في استخدامها خلال الوقت الراهن كبدائل للجسد البشري والتي تُعرَف باسم «الأطراف الاصطناعية»، ربما سيأتي هذا اليوم الذي سيتمنى فيها البشر النجاة من استخدامهم في هذا الغرض تمامًا كما لو كانوا مجرد مُنتجاتٍ

بلاستيكية بائسة، ومع مرور الوقت قد نتمكن من حقن الجسم البشري بتلك المادة البلاستيكية السائلة التي تتدفق من خلال العروق والأوردة والشرايين لتصل إلى الأعصابِ ومنها إلى الدماغ لتتبع كل عصب وخلية، فحينها من الممكن أن يقوم الأطباء بنَقع جسم الشخص المريض في أحد تلك الأحواضِ الحمضية التي بمقدورها إذابة اللحم الطبيعي بطريقةٍ تلقائية ليحل محل السائل البلاستيكي المُثَبّت بهذا الحِمض، ليتغذى القلب الجديد على دماءٍ جديدة!

من الممكن أن ترث ديزني لاند الأرض وما عليها خلال تلك الفترة التي تتناسَب مع مبادئها وأفكارها وتطلعاتها الخيالية، إذا أن عالم ديزني لاند يتواجد بينا بصفته إشارة إلى أرضِ السِحر والغموض والرمز، فهي تمثل أرضًا وهمية مليئة بالمفاجآت والمكافآت كنموذج أولي لعالمنا اليوم، ففيها سيصبح كل شيء مصنوع من مادة البلاستيك حتى تلك الطيور الساكنة أعشاشها والتي سوف تصدح بالغناء من خلال مناقيرها البلاستيكية الرهيبة، فكل شيء من البلاستيك حتى قطعان الغزلان ومجموعات الدِببَة والأفيال والأرانب التي تقف وسط مجموعة من البحيراتِ والأنهار الاصطناعية لتهز رؤوسها الآلية بطريقة مُصطَنعَة، كما أن الأفواج السياحية التي تقوم برحلاتها عبر النهر وفي الأحراش سوف تُفاجأ برؤية فرس النصر البلاستيكي الضخم. ناهيك عن تلك الثقافة العصرية التي يصبح اهتمامها الكامل مُنصَبًا على تناول الوجبات الجاهزة الخفيفة مثل شطائر الهامبرغر، والنقانق، والآيس كريم، والذرة، وغيرها من الوجبات الصغيرة.

إن المغزى الحقيقي لوجود مدينة ديزني لاند في عالمنا هي أنها تعكس أفكارنا ومفاهيمنا تجاه الأطفال من ناحية وضع تعريف مُحدد لهم، وكذلك معرفة تلك

الأشياء المُفيدة التي من شأنها خدمتهم، بالإضافة إلى تلك الأمور التي تنشد إسعادهم بدورها، فالأطفال هم فئة خاصة، قد جاؤوا إلى عالمنا هذا في ظل أحداث الثورة الصناعية، ومنذ تلك اللحظة على وجه التحديد وقد بدأنا في إنشاء عالم مُغلَق من أجلهم، هذا الذي يُشبه مجتمعًا للحضانة أو الرعاية لتسهيل مُشاركتهم في عالم الكبار تدريجيًا ورفع مستوى أدائهم في وقتٍ لاحق على المدى الطويل ولإبقائهم بمنأى عن سوق العمل، فالأطفال هم بمثابة صورة مُبكرة مُصغرة لمجموعة من اليافعين الذين يتوقون شوقًا للمشاركة في عالم الكبار بأسرع ما يمكن. إنهم يرغبون في اكتساب المعرفة من خلال التجربة والقيام بالفِعل، ولكن في هذا المجتمع المُنغَلِق الذي تم إنشائه من أجلهم خصيصًا، فإنه يُفتَرض أن يتم تعليمهم من خلال تظاهرهم بالحصول على المعرفة فحسب! تلك الإهانة العامة لمشاعرهم ومستوى ذكائهم، وكأنها تهمس في آذانهم أن الانخراط المجتمعي لهم يقتصر فقط على انغماسهم في ألعابهم وحديثهم الطفولي الساذج، وبناءً على ذلك فقد وقعوا أسرى لسِحر الطفولة المُزودة بالرفاهية وأشكال التسلية المختلفة، فهم يعلمون جيدًا أن ما يتعين عليهم القيام به الآن هو «اللعب» بدلًا من الذهاب إلى العمل، فهذا هو الشعور الذي يبقى ويدوم في أذهانهم خلال فترات الطفولة.

جدير بالذكر أن تلك الحالة من القمع العصبي للنمو تتجلى في عالم الدُمى الطفولية والألعاب المصنوعة من الصفيح التي يحرص أولئك الأطفال على اختيارها واقتنائها مثل الصورة المُصغرة للأسلحةِ والبنادق، الطائرات، والسيارات، وأدوات المطبخ، أطباق العشاء، المعدات الطبية، والصواريخ الفضائية المُصَممة تحديدًا لإبعاد أولئك الأطفال عن طريق الكبار.

في حقيقة الأمر، لقد استاء الأطفال من هذا العالم المُتمثل في الرعاية والحضانَة المجتمعية بشدة، لكنه لا يملك مكانًا آخر للذهاب إليه! فليس بمقدورهم المشاركة في عمل والدهم لأنه يذهب بعيدًا لإنجازه فتجده يتوجه إلى مكتبه أو مصنعه، كما أن معظم الأمهات يُجبرن أطفالهن على الخروج من المطبخ، إذ أن مساحته صغيرة جدًا لتكون قادرة على احتوائهم، كما أن الأم مشغولة جدًا بمسألة إخراج الطعام من الثلاجة حتى تبدأ في تجهيزه وتحضيره قبل حلول موعد الغذاء خلال تلك المسافة الزمنية المحدودة، ناهيك عن أن الحل الشائع لمعظم تلك الأمور والمُطَبق في كافةِ المنازل على الأرجح هو أن يتم إطعام الأطفال قبل عودة والدهم إلى المنزل وتجهيزهم للخلود إلى الفراش قبل لحظة قدوم الضيوف!

إن الآباء يُلَوثون أطباق أبنائهم من خلال تزويدها بالنقانق والهامبرغر والآيس كريم، وكذلك يُلوثون أكوابهم من خلال إضافة مادة الكوكا كولا ليقدموا كافة تلك الوجبات الخفيفة السريعة الجاهزة لهم بينما يجلس أولئك الأطفال في حالة افتتانٍ وهوس أمام شاشات التليفزيون الضخمة.

لقد ذهب أبي إلى عمله أيضًا عندما كنت طفلًا صغيرًا، لكنني تمكنت من المكوث معه ومُساعدته في عمله خلال فترة الكساد العظيم، إذ أنه خلال هذا الوقت اضطر لترك مكتبه وبدأ في تربية الأرانب في المنزل، وحينها كنت أقوم بمساعدته، مع أن المسألة لم تستمر سوى لفترةٍ زمنيةٍ قصيرة، كما أنني أتذكر جيدًا أن أمي لم تُخرجني من المطبخ يومًا، على النقيض، لقد سمحت لي أن أقوم بمساعدتها قليلًا، وبناءً على ذلك فقد تمكنت من الإلمام بمزيدٍ من قواعد فن الطبخ فقط من خلال قدرتي على المُراقَبَة، وعلى الرغم من أني لم أقم بالطهي

بشكلٍ عملي تطبيقي إلا عندما بلغت الرابعة والثلاثين من العُمر إذ كنت أعيش في شقة بمفردي لمدة عام إلا أنني حينها اكتشفت أنني قد تشربت هذا الفن منذ صغري.

بعد مرور عام أو عامين في وقتٍ لاحق، توجهت لقضاء فصل الشتاء في مزرعة نيو إنجلاند، هناك حيث كان المطبخ هو المكان الأكثر دفئًا في المنزل بأسره، وحينها توجهت لتوي إلى الأسفل ولم أكن قادرًا على العودة مُجَددًا وترك مكاني، كما أنني أحرص دائمًا أثناء الكتابة والتي تستمر من الساعة السادسة صباحًا وحتى الثالثة عصرًا أن أنتقل بغتةً من تلك الحالة من التفكير التجريدي إلى التفكير المادي الملموس فأمضي إلى الخارج لأتعرف على أبرز تلك الخيارات التي يتأهب السوق التجاري لتقديمها إليّ.

يمتلك المطبخ تلك القدرة السِحرية المُذهلة على إنزالي من سمواتِ الفكر العالية لإعادة الاتصال بالأشياءِ الموجودة على الأرض، ومع أن زوجتي طاهية ممتازة إلا أنها تسمح لي دائمًا أن أخوض تلك التجربة المُمتعة المُمتثلة في الطهي وكذلك التنظيف.

إنني أؤمن أن المطبخ الجذاب هو مركز رئيس للجاذبية البشرية، فالجميع يرغب في معرفة نوع وماهية تلك الأشياء التي يتم طبخها الآن، فالمطبخ ليس مجرد غرفة مرافق خدمية فحسب، إنما هو مكان لممارسة فن النحت والرسم وزراعة النباتات في كل مكانٍ في أرجاءِ المنزل، كما أنني هجرت ألوان الجدران الباهتة، وتبنيت تلك الألوان الزاهية المفعمة بالحياة مثل الأرجواني والأخضر والأزرق، إذ أنه من المُفتَرَض أن يشهد المطبخ جوًا من التغيير ليُضفي عليه حالة من السِحر والكيمياء. إنني أعشق رؤية هذا النوع من المطابخ الذي يستهدف

تغذية عقلي.

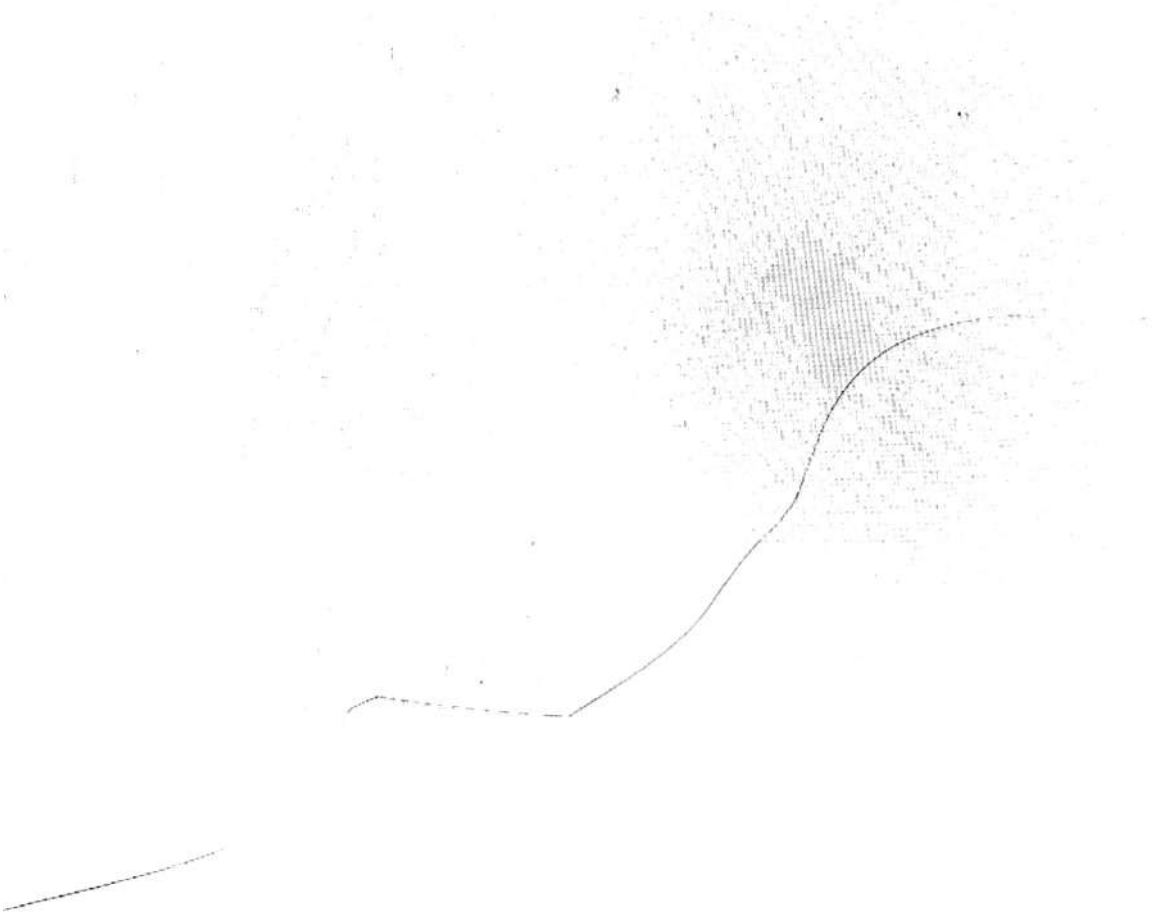

فن ارتداء الملابس

لقد عشت حالة تَمَرد واضحة خلال معظم أيام حياتي على تلك الملابس الجاهزة المُرَكبَة التي تُجبرنا المؤسسات أو عالم الموضة والأزياء على ارتدائها. إن الخطأ الأعظم هنا يعود إلى البريطانيين، الذين أرادوا تمييز نمط الملابس الرجالي عن غيره، لذلك قاموا بفرض مجموعة من الثياب السخيفة غير المُريحة والتي تعد من أسوأ ما اخترعت البشرية على مدارِ تاريخها الطويل. بدءًا من بو بروميل إلى شركات ساقبل للخياطة والتصميم وحتى شارع بوند ستريت، فقد تمكن المُصَممون البريطانيون من بيع كافة أشكال أزيائهم الغريبة المصنوعة من الصوف إلى العالم بأسره. لقد جردوا اليابانيين من زي الكيمونو الخاص بهم، وسلبوا من السيلانيين عباءتهم، وكذلك الحال مع الهندوس، وأيضًا جردوا أهل الشام من زي القُفطان الخاص بهم، وعلى ذلك فإن رجال الأعمال اليابانيين في يومنا الحالي يذهبون إلى أعمالهم بشكلٍ غير لائق، فقد أصبحوا يتوجهون إلى مناسبات العمل الرسمية وهم يرتدون أزياء قاتمة على الطراز الإدواردي أو معطف صباحي مع سروال مُقَلَم، ولأن اليابانيين قصار القامة نسبيًا، -خصوصًا- عند الأرجل، إذ إن ذيول المعاطف بالكاد تصل إلى أسفل ركبتيهم، فقد تتسبب هيئتهم تلك بجعل المرء يعتقد أنهم على وشك القفز والركض بعيدا في أي لحظة!

إنني أعرف هذا الأمر جيدًا لأنني قد وُلِدت وتعلمت في إنجلترا، وعندما تم إرسالي إلى مدرسةٍ داخلية في صغري قام العاملون بحشر جسدي بداخل ثوب إيتون العجيب، هذا المَلبَس الكارثي العجيب الذي يتألف من بنطالٍ رمادي ضيق داكن وصديرية سوداء مُبَطنَة مزودَة بالأزرار ومعطف أسود أشبَه بثياب القرد،

والذي أعتقد أنه صُمِم بوضوح ليجعل الفتية الصغار يتأهبون للجَلد!

ناهيك عن تلك الحمالات التي أُستِخدِمَت بهدف رفع السراويل والتي كنا نُسميها «دُعامات»، بالإضافة إلى الجوارب المُزَودَة بالأربطة، كذلك كان القميص عبارة عن قطعة صغيرة من الصوف المُثبتَة بأزرارٍ وأطواق بيضاء ضخمة، والتي يمكن ارتداؤها خارج السُترَة، كذلك يمكنك ارتداء قبعة سوداء من القش تتماشى مع ألوانِ المدرسة المُحَددة، لقد كنا نرتدي حينها قبعات بلون سمك السلمون الوردي المُغطاة باللونِ الأبيض عند المقدمة، لم يكن هذا الزي يحمل بدوره أية ميزه سواء من الناحية العملية أو الجمالية، لقد كان باردًا في الشتاء حارًا في الأوقاتِ الصيفية، كما أن ياقاته كانت تتسخ بعد كل استخدام بسرعة شديدة، كما أن القبعة سرعان ما تسقط من أثر الرياح، لذا؛ كنا نقوم بوضع قبعة إضافية أسفلها مربوطَة بحبلٍ موصول بين طرفها وصدر السُترَة.

جدير بالذكر أن هذا الزي قد تغير بدوره في وقتٍ لاحق لكنه لم يصبح أقل غرابَة وسخافَة من ذي قبل.

إن البشر هم الكائنات الحية الوحيدة التي ترتدي ملابس، تلك الحقيقة التي نعرفها جيدًا حتى الآن إلا إذا فجر لنا أحد أساتذة علم الحيوان مفاجأة أخرى غير متوقعة بخصوص هذا الشأن في القريب! إنهم أيضًا الكائنات الوحيدة التي تضحك، إذ إن حِس الدعابة يدخل ضمن خواص البشر وممتلكاتهم، هذا الفن الذي يستند بشكلٍ رئيس على فكرة ألا يأخذ المرء نفسه على محمل الجَد كأن يُطارد أحدهم قبعته التي أخذتها الريح بعيدًا، فالمشهد في حد ذاته مُضحكًا، إذا تأملناه -بصورةٍ كُليةٍ- مُجردة، فالناس يسخرون من أنفسهم لأنهم يعلمون جيدًا في أعماقهم أن حياتهم ما هي إلا مسرحية هزلية كبيرة، هذا الأمر الذي قد يدفع

بنا إلى أعماقِ التصوف، فالجميع يعرف بوجود الله بشكلٍ ما.

إن كل شخص منا يمثل بدوره حالة تجلٍ هائلة للطاقة الكونية من حولنا، فارتداء ملابس معينة على سبيل المثال يحمل في حد ذاته إشارة إلى تلك المعرفة الكبيرة الهائلة التي تُشَكِل شخصياتنا في نهايةِ المطاف، فتلك العبارات اليومية التي نستخدمها كثيرًا مثل:

«قُم بتغطية جسدك»، «أحكِم ربط حزامك»، «قُم بارتداء قميصك» «عليك تدفئة جسدك» تعد بمثابة رموز واستعارات للتعبير عن الحالات العقلية والنفسية والأخلاقية لتعكس جوانب نقص الشخصية وكمالها. إنها تربط بيننا كأشخاص وبين تلك الأشياء التي نرتديها من خلال التعبير عن ذلك عبر مجموعة من الروابط التعريفية والبديهية.

يمكننا مُلاحظة ذلك من خلال النظر إلى أنماط الأزياء والثياب المختلفة المتعددة لعددٍ من المهن والوظائف في مجتمعاتنا، فهناك الأزياء التي يرتديها الكهنة والرُهبان ورجال الدين عمومًا، وهناك تلك الثياب الأخرى التي تحرص على ارتدائها السيدات الشابات، والملابس التي ترتديها السيدات العجائز، وهناك أيضًا أنماط مختلفة يحرص على ارتدائها فئات دينية محددة في كافة أنحاء العالم، فكل هذه التنوعات فيما يخص عالم الملابس بشكلٍ عام هو ما يعكس لنا القيم الشخصية والأفكار والحالات الذهنية والفكرية التي يضعها هؤلاء الأشخاص بداخل عقولهم، تلك التي تقوم بتشكيل جوانبهم الشخصية على الصعيد العملي المادي.

هناك مَن يتعامل مع الثياب تبعًا لمنظورٍ روحي، فالكثير ممَن يعتنقون

الهندوسية أو البوذية على سبيل المثال يحرصون على ارتداء تلك الثياب الواسعة أو العباءات الفضفاضة التي تعكس طريقة تفكيرهم الراهنة، ورغبتهم في اعتماد مجموعة من القيم الروحية ذات الطابع الديني، وهناك أيضًا مَن يستخدمون الثياب كوسيلة لإظهار قوتهم البدنية وسلامة أجسادهم وامتلاكهم لقوامٍ مُذهل مُتناسِق، فمثلًا ستجد أن الرياضيين يرتدون ثيابًا ضيقة تعكس مدى رشاقتهم وقوتهم على أرضِ الواقع، فهم يرغبون في إرسال صورة ذهنية معينة تؤكد على قوتهم البدنية ووصولهم إلى مستوى جسدي لائق، فتلك الأزياء التي نقوم باختيارها ترتبط بما نضعه بعقولنا من صورٍ ذهنية نشرع في تجسيدها لاحقًا.

إن الوعي البشري هو ما يتشكل نتيجة إدراك تلك الحقيقة، فنحن لا نعرف الحقيقة العامة للأشياء إلا من خلال تأمل صورتها الذهنية لنخلق علاقة بينها وبين الأشياء كما هي في الواقع المادي، فهذا التطور الذهني المُذهل هو ما جعل شخصا يُدعى بوذا لأن يتوصل إلى كل هذا النُضج الروحي ليصبح لاحقًا نبراسًا لمختلف العقول حول العالم، فالفهم بتلك الدرجة الروحية العالية هو ما يجعلنا نُحَرر أنفسنا من أية قيود من شأنها إبقاءنا في مستوياتٍ مُتدنية من الوعي والنُضج، بالنسبة لمنهج الفيدانتا الذي يعد بمثابة قلب الديانة الهندوسية ومركزها الرئيس تعد الأجساد بمثابة ثياب المرء، وبأن الذات تتنكر وتتخفى وسط عددٍ من الأشكالِ والأقنعة، كما أن العالم بأسره تبعًا لمنظورهم هو بمثابة حفلة تنكرية هائلة، تلك التي يُسيطر عليها طابع الكآبة ثم يُدرك المرء في نهاية المطاف أن المسألة لم تكن تستدعي كل هذا القلق وإهدار الطاقة.

في واقع الأمر إن الطريقة المثالية لتطوير العالم بأسره وتحسين ظروفه

المختلفة هي تلك المتمثلة في الحفاظ على مسألة حُرية المَلبس، إذ إنه بمقدور الجميع ارتداء الثياب التي يرغبون بها، تلك التي تُناسبهم وتُلائم أفكارهم ومعتقداتهم وتقاليدهم الخاصة، فكل هذا التَعدد يصب في مصلحة المجتمع ككل في نهايةِ المطاف، فكل ذلك يجعلنا نخدم هذا الشعار الأخلاقي القائل:

«اصنع الحب لا الحرب.»

فتلك القيم المختلفة هي ما تساعدنا على خلق عالم جديد قادر على تَقبُل كافة الاختلافات بداخله والتي قد تتمثل بدورها في تباين عالم خطوط الأزياء، فلا يجدر بنا جميعًا ارتداء نفس النمط من الملابس، كما أنه يتعين علينا أن نحترم هذا الاختلاف والتنوع لأنه من دونه لن نتمكن من بناء شكل الحضارة الإنسانية الرائدة التي نتمناها حقًا، فتلك الثياب التي نقوم باختيارها وارتدائها يجب أن تتسم بالمرونة تمامًا كأفكارنا الشخصية حتى نتمكن من الوصول للإدراك التام بكل عناصر تلك الحفلة التنكرية الكونية الهائلة. ينبغي لنا أيضًا الحفاظ على هذا القدر من الأناقة فيما يخص خطوط الأزياء المُبتَكرَة.

إنني أتساءل حقًا في عجب، لماذا تقوم بعض الجهات أو المؤسسات بفرض نمط مُحدد من الثياب أثناء التواجد خلال أماكن معينة؟ على سبيل المثال لماذا يرتدي أبناء الجامعات والمدارس والباحثين نوعا مُحَددًا لا يمكنهم تغييره حتى ينطبق عليهم مصطلح أشخاص مُحترفين! فمن الأجدر أن يُترَك لهؤلاء مساحات الحرية لاختيار ما يرونه مُلائمًا لأفكارهم وأنماط شخصياتهم وفقًا للضوابط الأخلاقية العامة، فلا ينبغي أن تُملي الجهات العامة أحكامها في هذا الأمر حتى تقوم بتحقيق أغراض سياسية معينة، فهناك مَن يرغبون في إجهاض الحركة الديموقراطية لذلك تجدهم يُسارعون لإلغاء أنماط الثياب التابعة أو المؤيدة

لها فكريًا، ولماذا أيضًا يتعين على الأشخاص الأثرياء ارتداء ثياب مُعينة، وإذا لم يرغبوا في ذلك تُلاحقهم الانتقادات أنهم لا يسيرون على النهج السليم الذي يُناسِب ما وصلوا إليه على الصعيد المادي.

إن لعبة الموضة المُنافسة تقوم أساسًا على هذا المبدأ القائل:

«أنا أعرف أكثر منك لذا؛ اسمح لي أن أقودك في هذا المجال.»

لكن ما يجهله الناس بشكلٍ عام خلال اتباع قواعد تلك اللعبة أنها تسلب منهم هويتهم وشخصيتهم شيئًا فشيئًا، فإذ بها تتركهم مُتشابهين مع الجميع في كل شيء تقريبًا دون أن تكون هناك سمة مُميزة تخص أي فرد في مجتمع الموضة والأزياء، فإما أن تتبع قواعدي أو تسقط في جحيم الفوضى. إن المسألة الأعظم هنا هي التي تتعلق بالقدرة على تحفيز عمل المُخيلَة، فالثراء الحقيقي كما أشرنا في السابق هو الذي يتعلق بالقدرة على التَخيُل والتَصَور بدلًا من ربح المال.

فالمكسَب الحقيقي هنا هو الذي يتمثل في قدرة المرء على ارتداء ثياب مُريَحة أنيقة تُلائمه وتعبر عن أفكاره سواء أكانت تتوافق مع معايير ومواصفات الموضة الحديثة أم لا، فأثناء إقامتي في ولاية كاليفورنيا كنت أرتدي ثوب الكيمونو الياباني ذي الألوان الزاهية المُشرِقَة، لكني في الوقت الحالي لم أعد قادرًا على ارتداء هذا الثوب خلال وجودي في شوارع الولايات المتحدة، بينما بإمكاني ارتداء الزي الهندي المكسيكي المصنوع من الصوف خلال تجولي في شوارع لوس أنجلوس أو سان فرانسيسكو، لكني لا أملك الجرأة على ارتداء تلك الثياب في شيكاغو أو نيويورك، فعندما أكون هناك أجدني مُجبرًا على ارتداء نمط ثياب العمل الرسمية تمامًا كتلك التي يرتديها رجال الأعمال عملًا بتلك

المقولة الشائعة:

«عندما تكون في روما، تصرف كما الرومانيين»

مع ذلك فإنني أُصِر على ارتداء الصنادل بدلًا من الأحذية لأنها أكثر راحة بالنسبة لي.

منذ بضع سنوات أخبرني أحد أصدقائي اليابانيين أنه ليس بمقدوره حتى أن يحلم بارتداء ثوب الكيمونو الشعبي التقليدي في شوارع كيوتو وذلك لأنه ليس باستطاعة المرء أن يركض خلف الأتوبيس أثناء ارتدائه لهذا الثوب الطويل.

الأمر صحيح بالفعل، مع أنني أرى أنه لا ينبغي لأي شخص مُحتَرَم أن يركض خلف الأتوبيس! على أية حال يُمكنك أن تركض خلف الحافلة وأنت ترتدي تلك العباءة الفلبينية المُريحَة المُبهجة أو يمكنك ارتداء عباءة الرُهبان البوذيين المُزركشة البديعة، كما يُناسِب ثوب الساري الجميل المُريح النساء أيضًا. إنه يُناسب مختلف أنماط البشر ويشهد تنوعا هائلا في الأحجام والألوان والتصاميم، فهو يجعل المرأة تبدو تمامًا كالملكة، ناهيك عن تلك الصورة الذهنية التي تجعلها أقرب إلى تبنيها عندما ترى نفسها بهذا الشكل. لقد شكلت صناعة هذا النوع من الثياب ثورةً هائلة في مجال الأزياء حتى أن الكثير من نساء الغرب قد أقبلن على شراء الساري والكيمونو، مما حقق دخلًا هائلًا للبلدة المُصَنعة كما أنه يعد بمثابة بطاقة هوية ذكية جاذبة للأشخاصِ الأجانب حول العالم ممَن تتملكهم الرغبة والنَهَم الشديد في معرفة الكثير عن هذا الزي.

إنني لا أشيد بكافة هذه الأنماط العديدة للثياب الشرقية فقط للوفاء بالتزاماتنا لتعزيز الصناعة في العالم الثالث وإنما أيضًا للتأكيد على تلك المقولة:

«إن الملابس تصنع الإنسان وتعكس صورته.»

فقد تعكس ثيابنا حالة من الانفصال التام الواضح التي تعزلنا بعيدًا عن الأفراد والثقافات الأخرى، تلك التي تعد حينها بمثابة وسائل كارثية لا تستهدف خلق أي نوع من التواصل مع الآخرين كما أنها قد تقف كعائق بيننا وبين أنفسنا، فالبشر بصفةٍ عامة بحاجة للراحة والتروي والتحلي بالأناقة والبساطة، وقد تكون خطوة ارتداء الملابس الجيدة المُلائمة هي الخطوة الأولى في سبيل تحقيق ذلك الهدف.

روح العُنف ومسألة السلام

إنني أشك في حقيقة امتلاك الإنسان غريزة أصيلة للعُنف، فالغرائز أيًا كان نوعها سواء أكانت بدافع العُنف أو النجاة أو التكاثر أو الطعام هي بمثابة أسباب أو استفسارات لعملياتٍ كونية مُبهَمَة غير مفهومَة، فهي التي تدفعنا بطريقةٍ ما للقيام بأفعالِ الخير أو الشر دون أن نشعر.

إن معظم علماء السلوك النفسي في وقتنا الراهن يُفضلون تسمية تلك الغرائز باسم «الدوافع» حتى يكون هناك فهم شامل عام لتلك العمليات والتعرف على ماهيتها وطبيعتها وسماتها.

فعندما يشعر الناس بالغضب أو الجوع، فإنهم يتحركون كالدُمى، وكأن هناك قوى أخرى خارقة خارجية هي ما تقوم بتحريكهم بشكلٍ آلي، لكنني لا أتفق مع هذا التعريف السابق، إذ إنه يعني أن «الذات» هي شيء أقل من حيث القدرات والإمكانات من الكيان الجسدي الكامل وعملياته الحيوية المُتَصلة، فهذا معنى غامض عجيب بالنسبة لي.

لقد تربى معظم البشر على التفكير في أنفسهم باعتبارهم أُناسًا آليين، تمامًا كما عبر عن ذلك المعنى آرثر كويستلر في كتابه:

«فالأمر أشبَه بأننا نمتلك أرواحًا غريبة تمضي بخطى مُتعثرة في عالمٍ تملؤه الآلات، لقد دربنا أنفسنا لسنواتٍ طويلة على التفكير بهذه الطريقة الميكانيكية المُجَردة وصرفنا انتباهنا عن مركز التفكير الحقيقي.»

إنني أعلم جيدًا أن وظائف العقل والتفكير تمتلك سلطة هائلة على الجسد

بأكمله، فهي التي تُمكنه من الحركة والمشي والكلام والمُصافَحة، فهي -بإيجاز- السبب الرئيس وراء قدراتنا على القيام بالفعل، فالمسألة برمتها لا تتعلق أبدًا بوجود عوامل خارجية تدفعنا للشعور بأشياءٍ معينة دون أن نجد لها تفسيرا مُحددا، فكل شيء يقع لنا يعود إلى هذا الكيان الهائل بداخلنا الذي لا يجعلنا نتصرف بشكلٍ آلي، فنحن لسنا أُناسًا آليين كما نظن، إنما نحن نمتلك قدرةً تامة على إدارة عقولنا وأجسادنا، فبهذه الطريقة نتمكن من ضخ الأدرينالين والدماء بأجسادنا.

إن بعض الناس يعتقدون أن مسألة فصل «الأنا» عن الذات هي بمثابة تحقيق الإنجاز الإنساني الأكبر. إنهم يظنون أنهم إذا قاموا بذلك سوف يتمكنون من الخضوع إلى المنطق الطبيعي الذي يحكم العالم بأسره والذي يُسيطر بدوره على الأحداث المجردة من حولنا مما يمنحنا القدرة على إدارتها من خلال اتباع قواعد الفن والعلم، تلك التي سوف تمنحنا القدرة على الابتعاد عن أنفسنا لننتقد سلوكياتنا ولنصبح أكثر وعيًا بها، فطبقًا لوجهة النظر تلك أن هذا الأسلوب هو ما يجعلنا نسمو على الحيوانات، على الرغم من أننا لم نرَ حيوانًا يومًا قد حمل سلاحًا أو قام بتدمير الكوكب!

في الواقع إنني أعيش في منزل يُطل على ميناءٍ قديم، هناك حيث أجلس مُحاطًا بمجموعة من الطيور والبط البري والنوارس، تلك التي مهما بلغت درجة جوعها لا تقوم بتدمير أي شيء، لكنها تواصل البحث عن الطعام فحسب. إنني أتساءل لماذا أشعر بأن هذا العالم من الطيور أكثر عقلانية من عالم البشر؟ مع أنه من الصعب حقًا أن تكون طائرًا، فعليك أن تضع كمًا هائلًا في أمعائك الصغيرة تلك! ومن خلال تلك الطريقة التي تتدافَع وتتصارَع بها طيور النورس مع بعضها

البعض أثناء تناول الطعام يمكننا تَخيُل هذا الكم من السعادة الذي قد ينعَم به طائر النورس لكونه يتناول الطعام وحيدًا بمفرده، ولكن إذا قمت بإلقاء قطعة خبز لطائر النورس الوحيد، فإنه سيقوم بإطلاق صرخة من شأنها استدعاء بقية طيور النورس الأخرى التي ستأتي في الحال فور سماعها للانضمام إلى مأدبة الطعام. فقد يكون هذا الطائر غير قادر على العَد والحساب أو قد لا يعرف كيفية مَنع نفسه من التعبير عن سعادته الراهنة.

إن البشر يحقدون على الحيواناتِ بطريقةٍ ما غير قابلة للتفسير، وبناءً عليه فإنهم يحاولون استغلال أي سبب من أجل إثبات دونيتهم ونقصهم. إنهم يبذلون قصارى جهدهم طيلة الوقت بغية تحقيق ذلك والتأكيد عليه مرارًا وتكرارًا. إن جذور هذا الشعور العميق بالحقد تتمثل في اعتقاد البشر أن الحيوانات بصفةٍ عامة والطيور الحُرَة بصفةٍ خاصة لا تتحلى بأي شعور من المسؤولية، فهي تحصل على غذائها وتقوم ببناء أعشاشها وتبيض دون أن تكون على دراية بعلم الحساب، فهي تقوم بذلك بشكلٍ فطري طبيعي تمامًا كما نتنفس ونسمع، وبتلك الطريقة الآلية السهلة التي تنمو بها خصلات شعرنا دون أي مجهود من جانبنا. إن الطيور لا تفكر في الغد بينما لا يتمكن الإنسان العصري في يومنا الحالي من النوم ليلًا، فتجده يقضي ساعاتٍ طويلة يفكر في القرارات التي يتعين عليه اتخاذها أو يقوم بإصلاح أخطاء الماضي.

إن الإنسان لا يدرك أنه يحيا حالة دائمة مُستمرة من الصراع الداخلي خلال تلك المدة التي يتعين عليه فيها الوصول إلى أعلى مستوياتِ الحضارة والثقافة والوعي الروحي التام، فبينما يحاول السيطرة على ذاته وفرض مزيدٍ من القيود حتى يصل إلى أعلى الدرجات إلا أنه يفقد تدريجيًا شيئًا عميقًا أصيلًا بداخل

روحه والذي يضطره إلى ممارسة مختلف أشكال العُنف ضد نفسه.

لا يتوقف تأثير حالات العُنف تلك التي يختبرها الإنسان على ذاته فحسب، إنما يمتد الأمر ليصل إلى مجتمعه الخارجي أيضًا، إذ يتجسد ذلك في عدد من سلوكيات المرء القاسية مثل ضرب الأبناء، والكلاب، والأحصنة، تلك الصور من القسوة والوحشية الصريحة المُعلَنَة أو المُبهَمَة غير الواضحة التي نوجهها ضد الأشخاص الأقل ذكاء ومكرًا أو ما نُسميهم بالمجرمين.

يتعين علينا التَنويه إلى أن ذلك العُنف الذي يشعر به المرء ثم يبدأ في إخراجه في الواقع المادي تجاه كل ظرفٍ كوني أو كائنٍ حي قد نشأ في الأصل نتيجة هذا الانفصام الروحي بداخله. إن المشكلة الرئيسة هنا تتمثل في أن القانون والمنطق هي أنظمة غير خطية يتم التعبير عنها بشكلٍ لفظي رياضي أو من خلال أشكال وصور أخرى من الرموز التي تضع قليلًا من المعلومات في شكلٍ ملموس -نوعًا ما- مما يجعلنا نوجه انتباهنا وطاقتنا الذهنية نحوها لنبدأ رحلتنا في استيعابها، أما العالم المادي الفيزيائي فهو نقيض ذلك فهو عبارة عن تجليات وأنماط هائلة من الطاقة، والتي نحاول ترجمتها لرموزٍ خطية، مما يجعل الأمر يبدو معقدًا جدًا.

إن الواقع ذاته ليس شيئًا مُعقدًا، لكن الطريقة التي نحاول من خلالها التعبير عنه بالحروف والكلمات هي ما تتسم بدورها بالتعقيد التام، فالمسألة تُشبه أن تحاول القيام بإحصاء كافة أوراق الغابات التي تتغير باستمرار أو أن تقوم بقياس المُحيط الأطلسي.

في حقيقة الأمر، نحن مَن نخضع لقوانين الطبيعة الأم وليس العكس، لكنني

أخشى أن يُسيطر الوهم على عقولنا لمُدد زمنيةٍ أطول لنجد أنفسنا نُصَدق تلك الكذبة في نهايةِ المطاف، وحينها سوف نظن أننا مَن نقوم بإدارة الطبيعة وفقًا لمستوياتنا العقلية وليس العكس، وحينها سوف تزيد مسألة ارتباكنا الداخلي وسوف نخلط بين الكثير والكثير من الأمور.

الأمر يتفق تمامًا مع تلك النبرة الغاضبة الشائعة التي نقول فيها لأحدهم:

«بربك! لماذا لا تتصرف بشكلٍ طبيعي؟!»

إن ما نقصده هنا هو العودة إلى أحضانِ الطبيعة والتَصَرُف طبقًا لها، تلك السمة التي سلبتنا إياها المزيد من الأحداث الفيزيائية المادية التي باغتتنا أثناء الطريق.

في الواقع لو يعلم الإنسان هذا الكم من الضرر البدني والعصبي الذي قد يُطيح به من خلال اتباع ذلك المنهج لتوقف فورا عن التصرف وكأنه آلة، إذ إن مسألة اعترافه بمشاعره وذاته والعمل الجاد بغية التعبير عنها بكل صدق هي خطواتٍ رئيسة تلزمه بشدة حتى يتمكن من المُضي قُدُمًا من أجل بناء نظرية الوعي العقلي والروحي ليتسنى له فهم ما يدور حوله.

إنني أؤمن بشدة أن مخ الإنسان أكثر ذكاء من عقله، وبناءً عليه فإن ينبغي لنا الإيمان بحدسنا الفطري وجسدنا وعملياته المُتصلة ككل. يجدر بنا أن ندرك في أعماقنا أن كل شيء يسير على النحوِ السليم بداخل تلك المصفوفَة، فهذه هي طبيعة الأمور منذ بداية البداية، وليس هناك شيء غريب أو دخيل من شأنه قَلب الأمور رأسًا على عقب. نحن لسنا بحاجة لإثبات تفوقنا على أي كائن حي على هذه الأرض، كما أننا لن نُحقق أية إفادة تُذكَر لو أهدرنا مزيدًا من وقتنا وطاقتنا

بغية إثبات دُونية تلك الكائنات من حولنا، فكل شيء يتسم بالدقة والذكاء في هذا الكون، وهناك الكثير من الكائنات الحية التي نعجز عن فهمها لوقتنا الراهن، فنحن لا نعرف طبيعة تلك الأنظمة التي تعمل وفقًا لها، وكل ما يتوجب علينا فعله هو تقدير كل هذا والامتنان له.

أميل دائمًا إلى الإشارة لجسدي باعتباره يُمثل «ذاتي» تلك التي تقوم بكل عمليات الفهم والتركيز والانتباه والتأمل والإدراك.

إن الطريقة القديمة التي تعامل بها الغربيون مع أجسادهم في بداية المطاف تتسم بالغرابَة الشديدة، فلقد كانوا ينظرون إليها باعتبارها كيانات مُدهشة رائعة تستحق كل التقدير في حين أنهم كانوا في الوقت ذاته يُحَقرون من أي كائن حي آخر، كذلك كانوا يُقدمون تفسيرات وشروحات سلبية ناقصة وغير مُنصِفَة ازاء بعض الظواهر الطبيعية أو الكونية، والسؤال هنا كيف يمكن للمرء الانبهار بجسده وسماته المادية دون مُشاركة التعبير ذاته فيما يخص الكون والكائنات الحية التي تسكنه؟ فلا يمكننا أبدًا تناول أنفسنا بمَعزلٍ عن كل هذا، فأن يقوم الإنسان بتحديد قدراته بمنأى عن قوة الكون الأعظم المُحيطَة بها بمثابة العبث الحقيقي الذي لا يقبله المنطق، ومع ذلك كله فنحن نُصِر أن هذا الصراع الداخلي بين أجسادنا وصورة الذات الخاصة بنا، وتلك الحرب الأخرى القائمة بين المنطق والغريزة هي السمة الظرفية الرئيسة للحياة المُتحضرة.

في تلك اللحظة التي نتأمل فيها كوكبنا بعينٍ مُحايدة، فإننا نجد أن كل ما وصلنا إليه من أعمال القتل والتخريب والدمار يرجع إلى مُعايشتنا حالة من انعدام السلام الداخلي، فنحن نُقاتل ذواتنا دون أن نشعر في كل مرة نختلي فيها بأنفسنا، كما أننا نُحاول الفصل بين أرواحنا وتلك الذات التي تسكنها، ناهيك

عن تلك المدارس الفكرية والنفسية التي تؤكد على فصل الجسد عن الروح والعقل، فكل هذا محض هراء، فلو أننا حقًا نرغب في المُضي قُدُمًا نحو العصر التكنولوجي الرقمي، فإننا سنكون بحاجةٍ ماسةٍ لصُناع التقنية الحديثة ممَن يؤمنون في أعماقهم أنه ليس بالإمكان أبدًا فصل الذات عن الجسد والبيئة المادية، إننا بحاجة لمثل أولئك الرواد الذين يُدركون جيدًا أن هذا الصراع الداخلي هو ما يخلق حالة من الرفاهية الزائفة والثورة العنيفة كما أنه المُسَبِب الجوهري لغياب العدالة والإنصاف البشري.

لا يمكننا بأي حال إنكار تلك الأسباب التي تؤدي إلى شَن الحروب بغتةً، تلك التي تعود إلى عوامل عديدة، لعل أبرزها تلك العوامل والمُبررات الفكرية والصور الذهنية والتصورات التي تخص الفكر والدين والملكية والقومية والعرق وغيرها من الأمور الأخرى، ومع أن طبيعة الحروب ذاتها منذ بداية التاريخ إلا أنه ثمة تغيرات عدة قد طرأت عليها في الفترةِ الراهنة والتي تتمثل في كونها باتت تُقام من أجل «الرمز» أو «المصطلح» أو «الفكرة» أو «المغزى»، فلقد تطورت الحرب تمامًا كما كل شيء، إذ إن الحروب القديمة كانت تنشأ بهدف الاستيلاء على أرضٍ ما أو من أجل الحصول على ثرواتها المادية والطبيعية، ولكن الآن في العصر التكنولوجي صارت المسألة أكثر رمزية.

إن هذا التوجه التجريدي الذي بات يُمثل السمة الأساسية لعصرنا الراهن قد غير من مفاهيمنا السابقة بشكلٍ جذري، تلك المسألة التي أصبحت تنطبق على رؤيتنا لكل شيء في العالم المادي، فالناس في زمننا الحالي لم يعد لديهم أي تذوق حقيقي للأشياء المادية، فهم يملكون أفكارًا مُجردة بحتة إزاء مختلف الأمور مثل المال، والسيدات الحسناوات، والأطعمة الشهية، وغيرها، ومن ثَم لم

تعد سعادتهم أمرًا ملموسًا كما كان في السابق.

إن النجاة الوحيدة للبشرية تتمثل في ذاك السبيل الذي يعتمد على ربط معاني الحياة الروحية والفكرية والفلسفية والثقافية والبيولوجية معًا، فليس بمقدور أي أحد فهم أي شيء دون النظر إلى بقية الجوانب الأخرى، ولهذا السبب على وجه التحديد فإن اقتصارنا على النظر إلى جانب واحد هو ما يؤدي إلى افتقارنا لإدراك طبيعة الأشياء ككُل.

يجدر بي القول إن مسألة النظر إلى القضايا المُحيطَة بنا بشكلٍ أعمق يتطلب رؤية شاملة كُلية عميقة للأمور، لا يتعين عليك أن تضع حاجزًا يفصل بينك وبين الروح والمادة والموضوع والقاعدة والمسألة الفيزيائية المادية والمنطق والرياضيات، فمَن يُجيدون الحكم على الأمور من حولهم هم مَن لا يعيشون حالة من الفصل بين جوانبهم الحياتية، لا يمكنني أن أدرس شيئًا ما من خلال وجهة نظر عقلي فحسب بعيدًا عن حسابات كياني المادية الحسية، فكل شيء مُتصل بالآخر، تلك القاعدة الكونية التي يجدر بكل الأمور العمل طبقًا لها على كافةِ الأصعدة.

فلو اعتبرت أنني أُمَثِل ذاتي، فإن هذا يعني أنني أُجَسِد بيئتي أيضًا، ولهذا أقول إنك إذا قمت بتضييق مساحتك التعبيرية الخاصة، فلن تتمكن بدورك من إيجاد البيئة المُناسبة لك ولا الأشياء التي ترغب بها، فعندما تقوم بالبحث بداخلك جيدًا، فإنك تحصل على ما تُريده بالضبط، فهناك اعتقاد شائع أن عثورك على المعنى الدقيق للحقيقة يبدأ بالظروف الخارجية غير أن حقيقة الأمر أن المسألة تبدأ من داخلك فقط، فمن خلال تلك المنطقة السِحرية الحساسَة بإمكانك اقتناص الفرص والأفكار والأحداث الإيجابية، والابتعاد عن تلك الأمور

السلبية الأخرى، إذ إن بوصلة شعورك الداخلي هي ما تقودك إلى الجهة السليمة.

لا يمكننا تعريف «الذات» بكلمة «الجسد»، وإنما يمكننا تعريفها بنظام طاقي شامل يقوم بتجسيد تلك الذات في كافة الأجسام المادية.

إن الذات هي فكرتك عن نفسك، تلك التي تتحكم في وظائف أعضاء جسدك بشكلٍ لا واع، كما أنها تُشكل تلك الطاقة الكونية التي ينتج عنها «هالتك» التي تُخبر الناس بطريقةٍ ما بهويتك وماهيتك. إن هؤلاء الأشخاص الذين يعرفون تلك الحقيقة يتمكنون من توجيه مشاعر التقدير والامتنان لكل كائن حي يعيش في هذا العالم، كما أنهم يتعلمون كيف يحترمون أجسادهم بطريقةٍ تامة، ناهيك عن قدرتهم على استخدام التكنولوجيا لصالحهم، فالتقدم في تلك اللحظات يعمل لخدمة أهدافهم وليس ضدها، تمامًا كالبحار الذي يستخدم حركة الرياح لخدمته حتى لو كانت تتحرك في اتجاهٍ مُعاكِس. إن النقطة الرئيسة هنا هي أنه لا يمكن للمرء أبدًا إثبات الوجود المادي للذات أو العالم من خلال استخدام القوة، فالأدلة الملموسة الفيزيائية ليست الدليل الأوحد على وجود شيء ما، فهناك أمور كونية لا يُستَدَل عليها بتلك الطريقة، كما أن الكثير من الظواهر الخارقة والمظاهر الغامضة لا تخضع لهذا النوع من الفحص حتى نتأكد من مسألة وجودها أو عدمه.

العقاقير المُخدرة والتجربة الصوفية

لقد تناولت كافة الأديان تحذيرات تتعلق باستخدام تلك المواد والعقاقير المُخدرة، إذ إنها تقوم بتَغييب الإنسان عن الوعي، ومن ثَم فإنه يُقدِم على القيام بعدة أمور غير أخلاقية غير مسؤولة، فالشخص المُدمن على الكحول، أو مَن يتناول المواد المُخدرة أو حبوب الهلوسة يفقد القدرة على التمييز بين الحقيقة والخيال، إنه يعيش في عالمه المُنغَلِق الذي تُزينه الأوهام، فتجده يفقده جزءًا من قدرته البدنية المادية ومن ثَم يفقد السيطرة التامة على إدارة عقله، ربما كان هذا الجانب أحد الجوانب البارزة التي حثتني على الاهتمام بدراسة سيكولوجية الأديان أو ما يُعرَف باسم علم النفس التطوري للأديان.

لقد تفرغت لدراسة هذا المجال الثري لمدة ثلاثين عامًا بشكلٍ تفصيلي، إذا أنني بذلت قصارى جهدي للبحث في أسباب ومُبررات وظروف حالات الوعي تلك التي يصل إليها الأفراد حتى يكونوا على تواصل مع الإله أو الكون أو مركز الوجود أو أي اسم آخر تقوم باستخدامه الديانة أو العقيدة أو الثقافة لتُشير به إلى الواقع الأبدي.

فتلك التجربة التي تحمل مُسميات عدة مثل «التجربة الدينية» أو «التجربة الصوفية» أو «الوعي الكوني» تجعل الشخص يصل إلى أعلى مستويات النُضج الروحي والفكري التي تجعله شيئًا فشيئًا يقع في غرام تلك القوة الروحية في إطارِ حالة أشبَه بحالات الحب الشائعة. إنه شعور هائل مُدهِش يغمر الإنسان فيجعله يشعر بالسعادة دون وجود سبب منطقي لاختباره هذا الأمر.

يمكننا القول إن هذا الشعور وليد التجربة الصوفية يُشبه في لذته الوقوع

تحت تأثير مُخدر ما، بينما الفارق الوحيد هنا أن التجربة الصوفية لا تُفقدك عقلك، وإنما تفعل ذلك المخدرات والعقاقير المُهدئة، تلك التي قد ينصح بها الأطباء مرة أو مرتين، لكنك تجد أُناسًا لا يستطيعون التوقف عن تناولها، ليس لهدفٍ طبي، وإنما ليعيشوا بدورهم أعلى مراحل الغياب عن الوعي، تلك التي تجعلهم يهيمون على وجوههم دون أن يُدَققوا النظر أسفل أقدامهم. إن مدمني المواد المُخدرة والعقاقير المُهدئة لا يودون الاستفاقة لأسبابٍ نفسية بحتة، فعلى الرغم من أنهم يُبررون أفعالهم دائمًا بحاجتهم الماسة إلى العلاج الجسدي، لكن حقيقة الأمر تتضح في رغبتهم الشديدة للهروب من الواقع المُحيط بهم. إنهم يُعانون أكبر الأزمات النفسية المُتمثلة في ضياع هوية المرء، فهم لا يعرفون مَن هم حقًا؟

والسؤال هنا، وهل هناك شخص ما لا يعرف نفسه حقًا في يومنا هذا؟

الإجابة هي أن معظم البشر يواجهون تلك الأزمة منذ بداية التاريخ وحتى يومنا الراهن، فالكثير من الأشخاص الذين يُقبلون على الانتحار لا يعرفون أنفسهم، كما أن أولئك الذين يدخلون في نوبات اكتئاب لا يعرفون أنفسهم، كما أن أولئك الذين يُدمنون الكحول أو أي مواد مُخدرة لا يعرفون أنفسهم، كما أن أولئك الأشخاص الذين قد فقدوا عقولهم والتحقوا بمستشفيات الأمراض النفسية والعقلية لا يعرفون أنفسهم، فعندما يبدأ المرء في طرح أسئلة مثل: مَن أنا؟ ولماذا أحيا هنا؟ وما هي أهدافي؟ وكيف السبيل لتحقيقها؟ وغيرها من الأسئلة البديهية ولا يجد أي إجابات فإنه يدخل في حالة تامة من الذُعرِ والضياع، تلك التي يعقبها فقدان للمنطق.

تجربة المُخَدِّر

لقد قامت الحضارات منذ بدايتها على فكرة رئيسة تقول إن شعور الإنسان العميق بالنشوة ينبع أساسًا من إيمانه بالقيمة والفضيلة، فهذا ما يجعله يرغب في إدارة جسده وروحه وعقله على النحو الصحيح، كما أن كافة الثقافات قد عززت معنى القوة الداخلية والإرادة حتى يتمكن الإنسان من الوصول إلى أعلى مراحله الروحية.

على الجانب الآخر، فإن تأثيرات المواد المُخدرة أو العقاقير المُهدئة تستند على تغير الكيمياء ذاتها، فالكحول يختلف عن المواد الأفيونية وهكذا من حيث قدرة العقل على استحضار وتجلي صور عقلية مُحددة تمامًا، كما يختلف الضحك الناجم عن الغضب بطبيعته عن هذا الضحك الناجم عن البهجة أو الاكتئاب، فهناك فارق بين أن ينتشي المرء وأن يصل إلى أقصى درجات غياب الوعي، هذا الأمر الذي يتحكم بكل تأكيد في مسألة تشتيت التركيز، فلا يقدر الإنسان على ممارسة عدة أمور مهمة بارزة أثناء وقوعه تحت تأثير المُخدر أيًا كان نوعه، لعل أبرزها: قراءة كتاب، والعزف على آلة الكمان، وقيادة السيارة، إذ إن عوامل التفكير الإبداعية تتأثر سلبًا نتيجة وقوع الإنسان أسيرًا لتلك الحالة الذهنية المُلتبسَة.

جدير بالذكر أن مُعَلمي فن اليوجا على دراية كاملة بهذا الأمر، فهم يعكفون على ممارسة تدريباتهم الروحية بغية الوصول إلى أعلى مستوياتِ النشوة، التي يتمكنون من خلالها من الوصول إلى قمة النُضج الروحي والعقلي. فلقد تأسست اليوجا منذ بدايتها نتيجة الرغبة في اختبار هذا الشعور الذي قد يكون

بديلًا لوقوع الإنسان تحت تأثير المواد المُخدرة، وحينها شرع المرء يطرح على نفسه عددًا من الأسئلة أبرزها: كيف يمكن لي تحقيق تلك النشوة دون أن أتناول الكحول أو العقاقير المُخدرة؟

وقد هداه عقله البشري -في نهاية المطاف- إلى محاولة خلق نوع من التواصل مع خالق الكون من خلال عدة ممارسات روحية تأملية تستهدف إطلاق العنان لروحه وخياله، هذا الأمر الذي نجده حاضرًا أيضًا في كافة الديانات الأخرى التي نشأت نتيجة رغبة الإنسان منذ فجر التاريخ في خلق حالة من التواصل مع الكون وخالقه، وبناءً على ذلك فقد شعر الإنسان بقمةِ مجده عندما عاش عقله حالته الروحانية الجديدة التي مَكنته من اختبار الشعور بالنشوة المُتَخيّلَة، والتي بدأت ببحثه الدؤوب خلف تساؤلات وجودية بحتة بشأن عِلّة مكوثه على الأرض، وإن كان هناك علاقة مُحددة تربط بينه وبين عناصر الكون الأخرى، ومع مرور الزمن وتطور الوعي الإنساني ككُل نجح المرء في الإجابة على تلك التساؤلات والمُضي قُدمًا في اتجاه تحقيق أهدافه الروحية ورفع وعيه العقلي إلى أعلى المستويات المُمكنة.

لقد لعب هذا الاتصال مع الكون دورًا بارزًا ليس فقط على الصعيد الروحي والعقلي الإنساني، وإنما قد تمكن من خلاله الإنسان من تحسين وظائفه الجسدية، فمن خلال تلك الحالة من الهدوء والسلام النفسي التي يصل إليها من خلال ممارسة فلسفة الزن التأملية مثلًا أو عبر الصلاة أو الصمت فإنه يقوم بتهدئة جسده بعيدًا عن كل الانفعالات، كما أنه يُبقيه بمنأى قدر المُستطاع عن الأمراض، إذ إن ممارسات التأمل السابقة الذكر تُحقق الشعور بالنشوة لأنها تبدأ بطرد كافة تلك المشاعر والأفكار السلبية من عقل المرء وكيانه مما يترتب عليه

خلق إنسان آخر جديد يحيا حالة عقلية ونفسية جديدة خالية من أية مُشتتات أو مُنغصات.

إن إشكالية العقل الغربي تتمثل في دورها في قيامه بمُعارَضة ما يُعرَف بالتجربة الصوفية أو الروحية، فعلى الرغم من عدم انغماسه الكامل الحقيقي في العالم المادي من حوله وتركه فراغًا هائلًا وفجوة ضخمة بين ذاته وجسده، إلا أنه لا يميل إلى الاعتقاد في قوة هذا العالم الصوفي، فمعظم الغربيين يتعاملون مع التجربة الصوفية باعتبارها نوعًا من الوهم. إنهم يعتقدون أن الإنسان هو مَن يتوهم لحظات السلام الروحية تلك من أجل مواصلة تقدمه في الحياة اليومية، لكن الأمر عكس ذلك تمامًا، فالمسألة كلها تتمثل في أن تلك الجوانب الروحية والظواهر المُحيطَة بالكون تتسم بالغموض، تلك الصفة التي تجعل كثيرًا من المسائل غير قابلة للتفسير مما يدفع معظم أبناء الغرب للركض بعيدًا عن تلك الفلسفة التي تستند على الإيمان، فهم يرونها أقل عقلانية لأنها تفترض وجود أوهامٍ عدة وتعمل على تلبية رغباتٍ غير مادية أو ملموسَة، وهذا على نقيض أبناء الشرق الذين يؤمنون بقوة بالتجربة الصوفية الروحية، وقد ظهر ذلك جليًا في تَنوع صور العبادات وأشكال الصلاة وممارسات التأمل في الشرق على خلاف الوضع في العالم الغربي الذي يميل أكثر إلى دحض تلك المسائل الروحية التي ينظر لها بصفتها أوهامًا مؤكدة.

لعل هذا التفسير سابق الذكر هو ما يُعَلِل بدوره اتجاه عدد كبير من أبناء المجتمعات الغربية إلى إدمان المواد الكحولية أو العقاقير المُخدرة، إذ إنه يتعذر عليهم كُليًا أن يجدوا بديلًا لتلك التجربة الصوفية الروحية التي يسخرون منها ولا يعترفون بها، فتجدهم يبحثون بشتى الطرق عن شيءٍ آخر يُمَكنهم من

التقاط أنفسهم لبعض الوقت حتى يَنعموا بالشعورِ بالسلام والانسجام مع أنفسهم، ونتيجةً لذلك تجدهم يُقبلون على تناول تلك العقاقير والمواد المُخدرة التي يظنون أنها تعد مُسَكنًا لأوجاع عقولهم الصاخبة، فهم لا يُدركون أن ممارسات التأمل الروحية وأشكال الصلاة وغيرها من الطرق الأخرى هي ما تتسبب بشكلٍ تدريجي في تسكين تلك الأوجاع، الأمر الذي لا يجعلهم بحاجة إلى اللجوء إلى هذا الأسلوب العبثي المُدَمّر، وهذا ما حدث بالضبط عند تناول الإنسان للمواد المُخدرة والعقاقير المُهدئة التي وُصِفَت له باعتبارها جزءًا من العلاج من جانب عدد من الأطباء حول العالم لذا؛ فقد شَرع بتناولها على الفور وبشكلٍ آلي كان قد اعتاده طيلة حياته.

يجدر بنا الإشارة أن مسألة «آلية الإنسان» تلك هي ما أدت إلى تطور حالته على هذا النحو السيئ، إذ إنه لا يعلم أنه يمتلك القدرة التامة على التخلص من هذه السمة الأوتوماتيكية لينعم بمشاعرٍ طبيعية حقيقية، فقد جعلته يركض خلف مزيدٍ من الرغبات والآمال المُضِرة السلبية التي ألحقت به الأذى على المدى الطويل، فلو أنه جرب يومًا استبدال تلك «الآلية» بإنسانيته لتَمكن من غزو هذا العالم بروحه وعقله وكيانه المُتفَرِد، لكن الأزمة الرئيسة كما أوضحنا سابقًا أن الإنسان يرى نفسه مجرد آلة في هذا العصر.

إنني أتوقع أنه إذا مضى الإنسان قُدُمًا على هذا النحو المُتَخَبّط فإنه لن يصل إلى وجهة سليمة أبدًا، إذ إنه سيظل يدور ويدور في متاهَة لا نهايةً لها.

لقد أقام علماء الغرب عددًا كبيرًا من الأبحاث التي تخص العلاقة بين المُواد المُخدرة والتجربة الصوفية الروحية وأثر كل منهما على المرء، وحينها بدؤوا في إخضاع عدد من الأشخاص للتجربة وقاموا بإعطائهم جرعات مُحددة من بعض

المواد المُخدرة والعقاقير المُهدئة القوية وحينها حدثت المفاجأة التي أدهشتنا جميعًا!

فقد اختبر أولئك الأشخاص الواقعون تحت تأثير المُخدر أو العقار المُهدئ مستوياتٍ روحية وعقلية عُليا! فقد أخذ عقلهم يطوف كل مكان على نحوٍ إبداعي، لقد كنت بنفسي أحد المُشرفين والمُجربين في هذا الحقل العلمي بدعوة من أساتذة الجامعات، وحينها رأيت بعيني كيف تمكنت تلك المواد المُخدرة والعقاقير من جعل أولئك الأشخاص يصلون إلى مستويات وعي كونية!

في الواقع، لقد باغتني ما رأيته. وحينها بدأنا العمل على ورقة بحثية تخص العلاقة بين التجربة الصوفية وتناول تلك المواد المُخدرة، ونظرًا لتشابُه الأعراض والحالة العامة لكل منهما، فإن الأشخاص العاديين الذين يواجهون عددًا من الاضطرابات الداخلية يفضلون تناول تلك المواد السامة الخطيرة على أن يخوضوا غمار التجربة الصوفية الروحية المُشار إليها. إنهم لا يرغبون في إرهاق أنفسهم باتباع خطواتٍ معينة للنهوض بحالاتِ عقولهم أو أجسادهم، لكنهم يودون فقط أن يُلقوا بأنفسهم في أحضانِ المخدرات حتى يصلوا إلى حالة النشوة ذاتها ولكن من خلال اتباع طريقٍ سهل مُختصر.

إنهم لا يعرفون أنهم يدفعون ثمن ما يقومون به باهظًا، فإن لم يظهر ذلك الآن سوف يظهر جليًا أمام أعينهم في وقتٍ لاحق، فما أعرفه جيدًا أن تجربة إدمان العقاقير والمواد المُخدرة لا تستحق كل هذا العناء، فهي ليست أكثر من مجرد متعة مؤقتة تزول بزوال السبب، وإنما تلك النشوة التي تُحققها التجربة الصوفية الروحية هي ما تدوم لفتراتٍ طويلة، فأنت تقف مُندهشًا شاعرًا بالفضولِ التام أثناء دخولك بوابة عالم الروح. ها أنت تنتشي لأنك هنا الآن -تنتمي للحظةِ

الراهنة- ها أنت تتأمل الكون من خلال مرآتك الخاصة، فإذا بك تراه انعكاسًا خالصًا لنفسك وأفكارك، فما تراه وما تفكر به هو ما تُحققه وتكونه على أرضِ الواقع.

يلجأ الناس إلى التجربة الصوفية الروحية لأسبابٍ عديدة، لعل أبرزها الرغبة في خلق حالة من السلام مع الذات، أو من أجل الإجابة على تلك التساؤلات العديدة التي تملأ رأسك. فأنت لا تود حقًا الولوج إلى المنطقة من أجل مُضاعَفة عنائك الذاتي، فكل ما ترغب به هو التفاعل مع نفسك على أرضٍ جديدة قد تنتمي إلى عالمٍ آخر. إنك تريد أن تجد سبيلا للإصلاح الفوري، فلم تعد ترغب في التذمر والصراع والدخول في مشاحنات. إنك تشعر أنك تقف على حافةِ الجنون معظم الوقت، لذا فإنه ما من سبيلٍ آخر سوى عقد تلك الهُدنَة مع نفسك، هذا الأمر الذي لن يتحقق بدوره دون العمل جاهدًا على تطوير مستويات الوعي الخاصة بك من خلال التفاعل مع هذا الوعي الكوني الهائل الذي تنتمي إليه.

Telegram:@mbooks90

لقد نجحت تلك المواد المُخدرة والعقاقير المُهدئة في إضفاء طابع من البهجةِ المؤقتة على حياة أولئك الأشخاص الذين قد دخلوا عالمها مؤقتًا، لكن المسألة لا تقف عند هذا الحد، فلو أن الأمر بتلك البساطة لما كانت المواد المُخدرة والعقاقير المُهدئة تُشكل خطرًا على حياتنا، ولكان الناس بأسرهم على اختلافهم قد أقدموا على تناولها، لكن المعضلة الرئيسة هنا هي أن السبب وراء انقياد الكثير من الأشخاص خلف تلك الأشياء الخطيرة هو هذا الكم الوفير من الإغراءات التي تقدمها لهم، فهي تجعلهم يصلون إلى معدلاتٍ وعي مختلفة، كما أنها تجعلهم أكثر هدوءًا.

على الرغم من كافة تلك المزايا المؤقتة السالفة الذكر، إلا أن دخول الإنسان

إلى عوالم التجربة الصوفية الروحية هو ما يجعله يحيا حالة مختلفة، فمع أنه لا يصل إلى تلك اللذة منذ اتباعه للخطوة الأولى إلا أنها تغمر قلبه في نهاية المطاف، فكل ما يجدر به القيام به هو «اعتياد الأمر»، وأن يتذكر أن الهدف الرئيس من القيام بالتجربة الصوفية الروحية هو يقظة الروح، فإذا نجح الإنسان في تحقيق تلك المهمة، فإنه يتمكن تدريجيًا من إنجاز عدة مهام كُبرى أخرى، لعل أبرزها أن يحظى بقدرٍ هائل من التركيز، وكذلك سوف يتمتع بالإصغاء إلى صوته الداخلي، بالإضافة إلى قدرته على التفاعل مع الكون ومُتغيراته وعناصره المختلفة، وكذلك تذوق القيمة الحقيقية للزمن، فما يختبره المرء من خلال ممارسات التأمل وأشكال الصلاة وغيرها يتمثل في معرفته العميقة بعامل الوقت وكيف له أن يمضي وأن يقف، إذ إن أحد أسرار الزمن تتجسد في مرونته، والتي تجعل الإنسان يقدر على التعامل معه كيفما يشاء، فأنت مَن يمتلك القدرة التامة على إدارة الزمن، وليس العكس، تلك القاعدة الجوهرية التي سرعان ما يتعلمها المرء من خلال التزامه بممارسة التأمل أو الصلاة، فتلك المبادئ الأساسية للتجربة الصوفية هي ما تجعلنا أكثر قدرة على الاستمتاع بكل شيءٍ من حولنا، فالكثير من الناس مُنَومين مغناطيسيًا، فتجدهم يهرعون إلى مكاتب عملهم وشركاتهم على عجل دون أن يتأملوا الطريق مُعتقدين في قرارة أنفسهم أن ذلك هو السبيل الأمثل لخوض تجربة الحياة الفريدة، إنما الأمر مُناقض لذلك تمامًا، فما يتعين عليهم الشعور به هو عيش تلك اللحظة الحالية وليس الهروب منها بهذا الشكل، تلك الميزة التي تقدمها التجربة الصوفية الروحية والتي تجعلك قادرًا على التفاعل الكامل مع لحظتك الراهنة، فأنت لا تملك سوى تلك اللحظة من الناحية العملية، لذا؛ فإنه لا يتعين عليك التخلي عنها على هذا النحو، إذ إن سِر السعادة والتقدم هو أن تعيش اللحظة الراهنة بكامل طاقتك.

أعرف جيدًا أن معظم الموظفين ورجال الأعمال سوف يختلفون معي في تلك النقطة على وجه التحديد، إذ إنهم يرون أنه يتعين على الشخص العامل المُضي قُدُمًا بكل سرعة وجدية إلى محل عمله دون الالتفات إلى أي شيءٍ آخر، وإلا فإن هذا يعني بدوره أنه غير مُنشغل بمهمته بالقدرِ الكافي، وأنا هنا لا أتحدث عن مسألة «تشتيت الانتباه من خلال القيام بمهامٍ أخرى تافهة أو غير مهمة» لكن ما أقصده هو أنه لا يتعين على المرء إضاعة ثروته الهائلة المُتمثلة في «وقته»، وبناءً على ذلك يجدر به الالتفات إلى كل دقيقة وأن يعيش حياته كاملةً بهذه الطريقة، فإن تجاهل عنصر الوقت، فإنه سيندم كُليًا في وقتٍ سابق بعد أن يكون قد وصل إلى سن الخامسة والستين وتقاعد عن العمل، لكن الوقت سيكون قد تأخر جدًا ليصبح موعدًا مُناسبًا للتغيير.

إن هؤلاء الأشخاص الذين لا يعيشون في اللحظةِ الراهنة يقعون أسرى لمخاوف المستقبل وصور القلق المُتعددة، وبناءً عليه تجد أحاديثهم بأسرها مُنصَبّة فقط على الأحداثِ المُستقبلية القادمة. إنهم لا يحبون اللحظة الراهنة ولا يُقدرونها كما أنهم لا يتحدثون عنها، فكل ما يشغلهم حقًا هو هذا المستقبل الغامض المُبهَم الذي لا يعرفون عنه أي شيء، لذلك فإنني أقول إنه ما من وقت إلا الآن، فهذا القادم أمر مجهول بالنسبة لنا، فلماذا إذا يتعين علينا أن نقلق بشأنه أو نفكر به، فكل ما يعنينا حقًا هو هذا الحاضر الموجود بين أيدينا الآن، فإذا وضعنا تلك القاعدة نصب أعيننا سوف ننجح بدورنا في صناعة الكثير من النجاحات، إذ أن ما يهم على أرضِ الواقع هو عدم إضاعة تلك اللحظة، فهي ما تُمثل ثروتك الهائلة الراهنة، فبدلًا من أن تضع خطة من أجل المستقبل، يتعين عليك أن تضع خطتك لهذه اللحظة التي تعيشها بكامل قوتك الآن!

إن الأشخاص الناجحين لا يُخططون للمستقبل وإنما يضعون كامل اهتمامهم وقدراتهم لأجل تسخير لحظتهم الحالية على أكمل وجه، فإذا أردت أن تبني مُستقبلًا ناجحًا، فإنه يجدر بك العمل على ذاتك منذ الآن، فليس هناك سبيل آخر لبلوغ هدفك سوى ذلك.

أعرف الكثير من الأشخاص الذين يُعانون من نوبات قلق واكتئاب بسبب اتباعهم لتلك الاستراتيجية العبثية المُدَمرة، فتجد الواحد منهم يجلس مُمددًا في فراشه حتى ساعاتٍ مُنتصف الليل دون أن يغمض له جفن، وتجده يمضي على هذا النحو لأيامٍ شهورٍ وسنين طويلة. إن هؤلاء الأشخاص يُعانون من الأرق والتوتر والخوف من المستقبل. إنهم يقضون معظم أوقاتهم في التفكير في أمورٍ سلبية كئيبة ولا يُحاولون أبدًا التوقف لبعض الوقت لأخذ استراحة ولو لمدة قصيرة من تلك المُعاناة حتى يقوموا بتجديد وعيهم الخاص، وعندما لا يحاولون القيام بذلك، فهم يفقدون الشعور بمرور الزمن، هذا الأخير الذي يفقد قيمته الجوهرية بالنسبة لهم!

إنه لدربٍ من العبثِ حقًا أن تحاول التَحدث إلى هؤلاء الناس، إذ إن كل ما يعرفونه جيدًا هو أنهم خائفون من المستقبل، وإذا سألتهم: ماذا؟ عن أي مستقبلٍ تتحدثون؟ سيعودون مُجددًا لتلك الحالة من الشرودِ الذهني. إنهم يخشون هذا المجهول، فهو ما يُبقيهم مُحتجزين بداخل مقاعدهم وأسرتهم دون حِراك، فلو أنهم فقط يتغيرون من الداخل! لو أنهم يدركون أن السبيل الأمثل للعلاج لن يتأتى إلا من خلال اشتغالهم على أنفسهم! لو أنهم يدركون أن حالات الأرق التي ثُباغتهم من حينٍ إلى آخر تعود إلى الطريقة التي تعمل بها أذهانهم فقط لأنهم لا يرغبون في اختبار حالة السلام والصفاء العقلي التي يحصل عليها المرء كثمرة

التجربة الصوفية الروحية.

تلك التجربة المجيدة الرائعة التي تعد من أروع التجارب الإنسانية وأكثرها تفردًا، فإذا امتلك الإنسان القدرة الكاملة على فهم التجربة الصوفية وأبعادها فإنه سيمضي نحو مراحل النمو العقلي والروحي والجسدي بخُطى ثابتة دون تَرَدُد.

في تلك اللحظة التي ينغمس فيها المرء بداخل تجربته الصوفية يُدرك أسرارًا هائلة عن نفسه وعن الكون، تلك التي تجعله قادرًا على تحديد مكانه في الوجود الهائل، فحينها سيصل إلى إدراكه التام بقيمة ومعاني الأشياء من حوله، فستجده مثلًا على دراية بعلوم المادة والطاقة وسيصل إلى اكتشافاته الخاصة التي تتعلق بمفاهيمِ مُستقلة عن الأنا والذات وغيرها من التعريفات الأخرى التي كانت لُغزًا مُلغزًا بالنسبة له لمُدد زمنية طويلة، فإذا أراد المرء شراء شيء ما، فإنه يتعين عليه دفع تكلفة ذلك الشيء، تمامًا -كما هو الحال- مع رحلة الإنسان الذاتية لتَعلم كل شيء من حوله.

يمكنني القول إن التجربة الصوفية للإنسان منذ بدء التاريخ هي المُحرك الرئيس له حتى يتمكن من أن يكتشف ويعرف العديد من الحقائق الشخصية والكونية المُذهلة، فالمسألة لا تقتصر أبدًا على عددٍ مُحدد من المُمارسات التأملية الساذجة أو الصمت لمدة زمنية طويلة بشكلٍ عبثي دون أن يكون هناك أي هدف من ورائه، وإنما يعود كل ذلك إلى قيام الإنسان بشحن طاقاته من خلال إعادة تواصله مع الكون من حوله، فتجده يبدأ في تأمل منظر طبيعي أو يقوم بإرسال عبارات الامتنان والشكر للقدير أو تجده يصمت لمدة زمنية معقولة يقوم خلالها بإعادة ترتيب عالمه الداخلي، فنحن لا نُولَد حكماء وإنما يتطلب ذلك مرورنا بمراحلِ عظيمة حتى نصل إلى تلك النقطة، كما أن الإنسان أيضًا بصفةٍ عامة لا

يُولَد عظيمًا وإنما يتوجب عليه الاشتغال على ذاته من أجل اكتشاف مواطن القوة حتى يتمكن من تحقيق العظمة.

يتسم العقل البشري بالذكاء الحاد، كما أنه يتفاعل مع الكون من حوله على طريقته الخاصة، فهو يقوم بترجمة وجود الشمس إلى «ضوء» كما أنه يقوم بترجمة «ذبذبات الهواء» إلى «صوت» فهذا الجزء لديه حساباتٍ أخرى يتمكن من خلالها من تحقيق أغراض هائلة دون أن نشعر بذلك بشكلٍ مادي، فعقولنا تعمل على نحوٍ فعال إذا أشعرنا أنفسنا أننا أذكياء وأن كل شيء يحدث بتلقائية لخدمة أغراضنا، فتلك الصورة الذهنية الإيجابية وحدها هي ما تجعلنا نمضي في طريق تحقيق الإنجازات الضخمة.

أعرف أننا جميعًا قد مررنا بتلك المرحلة من التَخَبُّط الذهني العقلي التي أصابتنا بالارتباك لمدة زمنية لا بأس بها، إذ إننا لحينٍ من الزمن لم نكن نعرف إن كنا نحن مَن نُدير الكون أم أن الأخير هو ما يقوم بإدارتنا؟

لقد شغلنا هذا السؤال مدة طويلة ثم توصلنا في النهاية إلى استنتاجٍ عقلي والذي يُعزز كوننا نُمثل انعكاسا للكون من حولنا، فكل ما نراه هو انعكاس لتلك الصور والأفكار والمعتقدات التي نحملها بداخلنا، فالشخص الفقير يقلق لأنه لا يمتلك المال الكاف، كما أن الشخص الثري يقلق لأن صحته ليست جيدة، فمشاعر القلق ذاتها واحدة على أي حال، ولكن المُسَبب الرئيس لكل منها يعود إلى طبيعة أفكارك ومعتقداتك المُتبناة.

يجدر بنا القول إن التجربة الصوفية هي تلك التي أوجدها البشر لخلق نوع من الشعور بالطمأنينة بداخلهم، كما أنها تستهدف إعادة حالة التوازن النفسي

والروحي التي فقدها المرء خلال أزمات الحياة وأحداثها المُتلاحقة سريعة الوتيرة. إن إنسان هذا العصر المُصاب بالقلقِ المُزمِن بحاجةٍ ماسةٍ إلى تعزيز تجربته الصوفية. إنه بحاجة إلى ارتداء الثياب المُريحة وتناول الأطعمة المُناسبة. إنه في أشد الحاجة لقهر العُنف والاستماع إلى صوته الداخلي حتى يتمكن من الوصول إلى أعلى مستوياتِ الوعي الروحي، ذلك السبيل الذي لا يمكنه أن يسلكه بأي حال دون أن يكون قادرًا على الاعتراف بخطئه تجاه نفسه، هذا الذي يتمثل في عدم الإصغاء إليها وتجاهل مشاعرها وأفكارها الصاخبة غير المُرتَبة.

عليك أن تعلم أنه لن يقوم أي أحد في هذا العالم بتولي تلك المسؤولية نيابةً عنك، فالمسألة كلها عائدة إليك وحدك، فأنت مَن تمتلك القدرة على السيطرة على مجالك الروحي حتى تتمكن من إدارة جسدك على النحو الذي ترغب به، فإذا لم تقدر على تَعَلُم هذا الدرس الثمين، لن تستطيع إخضاع جسدك لأوامرك، فهذا أمر في غايةِ البساطة والوضوح كما كشف عنه في السابق عدد هائل من أهم وأبرز العلماء وأساتذة فنون وفلسفات التأمل في كافة أنحاء العالم.

في الواقع، ليس هناك أي جدوى من فصل الإنسان عن بيئته الخارجية أو محيطه أثناء خوضه هذا النوع من التجارب الروحية، فالتجربة الصوفية تعني أن المرء جزء من هذا الكون الهائل الواسع غير المحدود، كما أنه يذوب بداخل كيانه، فمن خلال إدراك الواحد مِنا لتلك الحقيقة فإنه ينجح في الاتصال بالكون كما يريد، فعندما تتصل بهذا الكيان الضخم من حولك فإنك تتصل بذاتك، وعندما تشرع في جعل «التأمل» عادة يومية، فإنك تنجح في خلق حالة ذهنية إيجابية تساعدك على إتمام مهامك غير المُنجزَة، إذ أن عملية التأمل لا تعني أن تجلس

في زاوية من زوايا غرفتك في حالة من الصمت فحسب، لكنها تعني أن تختبر إحدى حالاتِ السكون، تلك التي تجعلك تشهد ازدهارًا عقليًا هائلًا، فعندما تصمت لمدة من الوقت فإنك تقوم بتنشيط خلايا عقلك وتحفيز نفسك على اتخاذ إجراءات فعلية قادمة، والصمت هنا لا يعني أن تُغلِق فمك فحسب، وإنما يُقصَد به أن تفكر مليًا في كل ما يشغلك وأن تُراقِب أفكارك بطريقةٍ ذكية، فعندما تصل إلى تلك المرحلة من الوعي فإنك تمتلك القدرة لاحقًا على مُصافحة النجوم. كل ما عليك هو أن تجلس في حالة من السكون لتفكر بحذر وتسأل نفسك: مَن أنا؟ ما الذي أريد صدقًا أن أكونه؟

إن تلك التجربة الروحية ترفعك إلى الأعلى، على الرغم من أن قدميك لاتزال على الأرض، لكنها تمنحك الحرية والقدرة على التحليق في سماواتٍ بعيدة. ها أنت تلتقط أنفاسك بهدوء ثم تُرَتِب أفكارك. ها أنت تلتزم بتلك التأكيدات الإيجابية حتى تستشعر وجودك الحقيقي في الحياة.

لقد توارثنا من بعضنا البعض الكثير من المفاهيم والأفكار سواء عن طريق الحضارة أو الثقافة عبر أجيالٍ عديدة مُتعاقبة والتي تقول «إننا جئنا إلى هذا الكون»، مع أن حقيقة الأمر هي أننا «قد جئنا منه» فنحن جزء من أصل هذا الكون، تمامًا مثل الأشجار والنجوم والمجرات السماوية، فتلك الفكرة السابقة الذكر التي تتعلق بالمجيء إلى الكون، جعلت المسألة أشبَه بكوننا نَحِل ضيوفًا على هذه الأرض، وعلى هذا فقد جاء تفاعلنا مع كل شيء من حولنا بشكلٍ مُختلف يتفق مع هذه الفكرة، فقد عكفنا على التعامل مع كافة العناصر المُحيطَة بنا بحذرٍ بالغ وخوف وقلق، فنحن نحشى من المستقبل لأنه مجهول بالنسبة إلينا، ولأننا طبقًا لهذا المفهوم السابق الذكر مجرد «ضيوف أو مجموعة من

الزائرين» فنحن لا نحمل بداخلنا انتماء حقيقيًا ماديًا لهذا المكان، وبناءً عليه فإننا لسنا مُستعدين لإعطاء الكون ثقتنا الكاملة، وبالتالي فإننا نشعر بالقلق والتوتر بشأن المستقبل، وكذلك نختبر مجموعة من الانفعالات التي تشهد قدرًا هائلًا من المُبالَغَة إزاء تلك الأحداث الراهنة، فنحن لا نشعر بالأمن في وقتنا الحالي خلال حياتنا على الأرض، فكل ما نشعر به حقًا أننا بحاجةٍ ماسةٍ إلى أي شيء من شأنه بَثّ الطمأنينة في قلوبنا!

نظل أسرى لهذه الدوامَة المُدَمرة لمدةٍ طويلة من الزمن. نعتقد خلالها أن كل شيء في الكون يحدث بهدف إلحاق الأذى، وحتى وإن كررنا بعض العبارات الإيجابية المؤقتة، فإننا ندرك جيدًا أن هذا أمر مؤقت سيزول بزوال السبب، لكن الحالة العامة المُسيطرة علينا هي حالة القلق وانعدام الثقة في كل ما يتعلق بهذا الكون، فإذا كانت تلك هي الصورة الذهنية التي تضعها في رأسك الآن بخصوص عالمك الحالي، دعني أخبرك أن مستقبلك سوف يكون أكثر اضطرابًا وإرباكًا بصورةٍ لا يمكنك تصورها، إذ إن السِر وراء ضمان مستقبل جيد هو «الإيمان» بأن هذا المستقبل سوف يكون جيدًا بالفعل، فالصورة الذهنية للشيء هي ما تُحَدد ما سيكون عليه، وتَذكر دائمًا أن المشكلة لا تكمن أبدًا في الشيء نفسه وإنما تكمن في صورتك الذهنية عنه! فإذا كنت مثلًا تُصاب بنوباتِ القلق والتوتر كلما رأيت شكل أقراص الدواء أمامك على الطاولة، وبناءً على ذلك بدأت تشعر بأعراضِ الإعياء والتعب في يومٍ لاحق، فلا تندهش أبدًا، إذ إن صورتك الذهنية لأقراص الدواء تلك هي ما جعلتك تجذب صورة أخرى سلبية مُماثلة، لنتخيل مثلًا أنك تتصور أن أقراص الدواء تلك هي مُكعباتٍ من الحلوى فحسب، فحينها عند رؤيتك لها على الطاولة لن تُثير بداخلك نفس تلك الطاقة السلبية التي سبق وأشرنا إليها، وعلى النقيض فعندما تراها مُصادفةً لن تشعر بأي أمر سلبي، وبهذا

فإنك لن تخلق تفاعلا سلبيا مع نفسك مما يؤدي في النهاية إلى تجربة سلبية مُماثلة، كذلك الحال إذا كنت قد اختبرت رحلة سيئة إلى مدينة ما حول العالم، ولأنك قد صادفت بعض الأمور السلبية خلال قيامك بتلك الرحلة مثل إصابتك بالإرهاق أو التوتر أو الدوار أو أي شيءٍ آخر فإنك لا ترغب في تكرار تلك الرحلة مُجددًا، فتذكر دائمًا أن مشكلتك لا تتمثل في القيام بالرحلة، إنما تظهر بدورها في صورتك الذهنية عن الرحلة، وهنا ستكون المواجهة خير الحلول، لهذا يتعين عليك أن تتوجه إلى رحلةٍ أخرى إلى هذه المدينة، ولكن عليك أن تتحلى بصورةٍ ذهنية إيجابية عن السفر هذه المرة، قل لنفسك إن رحلتك سوف تكون على ما يُرام، كرر دائمًا أن كل شيء في هذا اليوم يعمل لخدمتك، قُم بتعزيز مزيد من العباراتِ الإيجابية واستمر في المُضي قُدمًا لإتمام كافة الاستعدادت والتجهيزات فأنت على وشك القيام بمهمةٍ رائعة.

تخيل معي أنك قمت بإلغاء تلك الرحلة نتيجة تجربتك السابقة السيئة. تخيل لو أنها نجحت في إبعاد نفسك عن السفر لتلك البلدة في أية مُناسبة أخرى أو أنها جعلتك تمقت السفر ذاته أو تنفر منه! فلو أنك حينها رأيت حقائب سفر أو صورة طائرة أو حتى تذكرة ما أو سمعت صوت نداء الطائرة المعروف لأصابتك نوبة هلع وقلق مُزمنة سوف تتراكم مع مرور الوقت ولن تتمكن من حلها.

إن المواجهة هي الحل الأفضل دائمًا، تلك التي تتمثل في وقوفك أمام مرآة ذاتك وجهًا لوجه، لتقوم بالإشارة إلى مكان جرحك المُحدد ولتبدأ في علاجه بكل السُبل المُمكنة. إنك لست بحاجة إلى الهروب أو التجاهُل أو الانغماس في عالمٍ من الأفكار والمشاعر السلبية، فكل ما أنت بحاجته أن تتمتع بالقدرة على الإصغاء لنفسك وأن تبدأ في ضبط إيقاع جسدك ليتناغم بدوره مع الروح.

تُشعِرك التجربة الصوفية الروحية بهذه القوة المُستمَدَة من الكون، فهي تهزك بعُنف لتستفيق من غفوتك.

جدير بالذكر أن تلك التجارب الصوفية لا تؤتي ثمارها منذ اليوم الأول أو الساعة الأولى، فهي تتطلب أعلى درجاتِ التركيز والسكينة حتى يصبح الإنسان قادرًا على خلق حالة من التناغُم مع ذاته وكل ما يُحيط به من مؤثرات في العالم الخارجي، إذ إنه لا يجدر بنا الوقوع في فخ العالم الخارجي المادي لنخبر أنفسنا أننا بمثابة «نتيجة آلية» فقط لكل ما يدور في هذا المحيط، فالأمر ليس كذلك على الإطلاق، على نقيض ذلك فنحن مَن نملك القدرة على إدارة الأمور فقط لو أننا عرفنا ذلك وآمنا به، فنحن جزءٌ من هذا الكون العظيم الذكي كما أننا نعد انعكاسًا له.

إن أهمية التجربة الروحية لا تتوقف فقط على تلك المزايا السابقة مثل الحصول على التوازن النفسي، والحرية الذاتية، والقدرة على اتخاذ القرارات المُنضَبطة، والشعور بالسلام والمحبة، والانسجام والتناغُم، وإنما تتمثل أيضًا في جعلنا أكثر ذكاء من الناحية الاجتماعية، ففي تلك اللحظة التي يدرك فيها المرء كيفية التواصل مع ذاته، فإنه ينجح في التواصل مع غيره من البشر الآخرين من حوله، كما أنه يتمكن من إدارة ظروفه وحالاته النفسية والذهنية وفرض سيطرته على كل شيء، وبناءً على ما سبق فإن ما أخشاه أن يتجاهل الجيل القادم ممَن يستخدمون التكنولوجيا ويقومون بصناعتها تلك التجارب الصوفية الروحية أو يشرعون في السخرية منها بطريقةٍ ما، إذ إن التطور الروحي لا يتناقض بدوره مع التطور العلمي، فكلما زاد تطور العقل ووصوله إلى مستوياتٍ فكرية وذهنية عُليا، كلما تعطشت الروح لإحداث تطورات أكبر في طريقها بغية الوصول إلى

قِمم النمو المنشودَة، لهذا يتعين على صُناع التقنية الحديثة القادمة ودُعاتها تعزيز جوانبهم الروحية من خلال الاعتماد على خوض التجارب الصوفية الروحية، فتلك التجربة الروحية هي التي ستجعلهم بمنأى عن أعراضِ الهلوسَة الناجمة عن الطفرة التكنولوجية الهائلة غير المحدودة القادمة، فلابد أن يكون هناك مَرجِع للهدوء والسكينة، ومن المفترض أن يكون هناك ملاذا دائمًا أبديًا للمرء كلما ضاقت عليه سُبل الحياة ودفعت به إلى طرق التوتر والجنون، فما نحن بحاجته حقًا هو أن نُبقي على تجاربنا الروحية في ظل قدوم تلك الموجات الحديثة من التكنولوجيا والتقدم العلمي.

يمكنني القول أيضًا إن هذا التقدم العلمي لا يمكن أن يُحقق مداه على نحوٍ صادق وسليم إلا إذا تبنى المرء عقلية مُنفَتِحَة يغمرها السلام والصفاء الذهني، وهذا لا يتحقق عادةً دون الالتزام بممارسة التأمل وتمارين الصمت أو اعتماد أشكال الصلاة وتقديم الامتنان لهذا الكون وصانعه، كما أن تلك الطرق هي التي تجعلنا قادرين على التحدث إلى أنفسنا بصوتٍ مسموع، فنحن لا نخجل من ذواتنا هنا في تلك المرحلة، وإنما نبذل قصارى جهدنا من أجل خلق حالة من المواجهة والمُكاشَفَة مع ذواتنا لنصل إلى كافة الغايات المأمولة.

إذا ضاعت العلاقة بين الطبيعة والإنسان، فلن يُشَكّل التطور التقني التكنولوجي حينها أكثر من مجرد عبءٍ يحمله الإنسان على عاتقه، فحينها سيبدو المشهد وكأننا نريد أن نجعل العالم كله بلا روح أو طعم، تمامًا كما لو كنا نرغب في اختيار مدينة مُعينة وتصميم العالم كله على شاكلتها، بحيث تصبح كافة المدن مُتشابهة، ففي ظل التقدم التكنولوجي ستفوح رائحة الأدخنة وعوادم السيارات من كل مكانٍ في العالم، وسيحدث تفاقُم هائل في قضايا

تلوث البيئة والهواء والماء، وستضاف مزيدًا من الحيوانات إلى قوائم الانقراض وسيصبح الإنسان أقرب إلى الآلة، يقوم بتأدية المهام دون أن يُخالجه أي شعور نحوها، فهذا هو الأمر المُتوقع لتلك الطفرة التكنولوجية الرقمية القادمة في ظل غياب تواصل الإنسان بالطبيعة، فليس من الواجب أبدًا أن ننعزل عن الطبيعة المُحيطَة بنا إن كنا نرغب حقًا في المُضي قُدُمًا في سبيل تحقيق التقدم في هذا المجال السابق الذكر، فتلك الأخيرة هي المصدر الهائل الذي نستمد منه طاقتنا الكونية، كما أنها إحدى وسائل العلاج الذاتي، فكيف لنا إذن أن نتقدم من الناحية التكنولوجية ونتأخر فيما يتعلق بهذا الجانب؟

إن مسألة العمل من أجل المال قد أصابت ملايين الناس حول العالم بالجنون، فالجميع مهووسون بفكرة الثراء السريع السهل المجاني، كما أنهم يبذلون قصارى جهدهم من أجل خلق فرص الربح وكسب الأموال، فإحدى أبرز السمات المُميزة للعصر الحالي تلك الحالة من الجنون المتمثلة في الركض بكل سرعة خلف المال، فالجميع يتوجهون إلى مقراتِ مكاتبهم وشركاتهم حاليًا من أجل تحقيق الربح، وليس حُبًا في العمل ذاته، كما أن مَن يقومون بإجراء تجربة علمية مُحددة لأي غرض يقومون بها من أجل تحقيق مزيد من المال، وليس بهدف الحصول على المُتعَة العلمية، ناهيك عن أن مَن يبتكرون جهازًا معينًا أو يخترعون آلة ما باتوا يقومون بالأمر بغية تحقيق الربح المادي، كذلك الأمر ينطبق على أصحاب المهن الصغيرة والحرفيين والباعة والتجار وصيادي السمك والمُعلمين والمهندسين والأطباء والصحفيين ومُتعهدي دفن الموتى!

فالمسألة برمتها أصبحت تتلخص في شيء مُحدد ألا وهو كيف لنا أن نصنع مزيدًا من الأموال؟

وعلى الرغم من قناعتي أن المال شيء مهم وجيد وضروري كوسيلة أساسية في هذه الحياة إلا أني أرى مسألة مُبالغة النظر إليه والتعامل معه بهذا الهوس شيئًا ضارًا غير صحي على الإطلاق، فلو كنت أقوم بعملي كله من أجل الحصول على هذا المال فقط فهذا لا يعني أني سأحقق أي مُتعَة أثناء قيامي به حتى وإن حصلت على كل المال الذي أُريده!، فنحن كبشر بحاجة أيضًا إلى إرضاء جانبنا الروحي المعنوي وليس المادي فقط، فنحن بحاجةٍ ماسةٍ للتقدير وعبارات الامتنان والشكر، فمن دونها لن نحظى بأي سعادة، كما أن المال في حد ذاته هو مجرد وسيلة فقط لتحقيق غاياتنا المادية مثل شراء الطعام أو الشراب أو الملابس أو الشقق السكنية أو المجوهرات، ولا يمكننا أن نتناوله أو نُحقق به أي فائدة لأجسادنا إلا إذا قمنا باستبداله بشيءٍ آخر، فالمال هو إحدى صور المُقايضَة ليس أكثر، تلك المعلومة التي ينساها معظم الناس في الوقتِ الراهن.

يمكننا بكل سهولة الآن رؤية هذا الكم الهائل من ملايين الكتب التي تُناقش التجارب الروحية الصوفية على اختلافها مثل كتب اليوجا وفلسفة الزن وغيرها من الكتب الأخرى التي يُروج لها العالم الغربي بصورة -غير مَسبوقَة- الآن، فهذا إن دَل على شيء فإنه يدل على هذا الجوع الداخلي لأبناء المجتمع الغربي لمثل هذا النوع من الشعور بالطمأنينة والأمن. إنهم يتوقون بشدة لتهدئة هذا التوتر الساكن ذواتهم -ليل نهار-. إنهم يرغبون في إسكات صوت عُنفهم الداخلي الذي يجعلهم يخشون أنفسهم -بطريقةٍ أو بأخرى-. إنهم غير قادرين على إعلان الحقيقة والتصريح بها، إذ إنهم يودون لو أن بإمكانهم الصراخ في العلن والتعبير عن خوفهم ومشاعرهم السلبية التي تسكنهم منذ زمنٍ طويل، لكنهم يعجزون عن القيام بهذه المهمة فتجدهم يبحثون بشراهة -غير مسبوقَة- عن الكتب الروحية التي تستهدف إدارة أرواحهم وأجسادهم طبقًا لها!

جدير بالذكر إنه لم يكن هناك أي اهتمام في السابق بأمر ترجمة كتب الفلسفة الشرقية وتلك التي تخص الحياة الصوفية والتجربة الروحية، فالأمر برمته بدأ في العصر الحديث، إذ إنه كان هناك بعض المحاولات الفردية في سبيل تحسين هذا السبيل في المدد الزمنية والحُقَب الماضية لكن لم يكن بهذا النحو، فنحن نجد الآن في المرحلة الراهنة أكوامًا من الكتب المُترجمَة حديثًا والتي تغطي تلك الميادين الروحية، فعلى الرغم من حركة التطور العلمية التي نعيشها الآن، ومع كل هذه الطفرة التكنولوجية الرقمية التي لا يُنكرها أحد إلا أن الإنسان الغربي بشكلٍ خاص والإنسان بشكلٍ عام لا زال يشعر بفراغٍ روحي هائل يكاد يلتهمه من الداخل، فهو بحاجةٍ ماسةٍ لسَد هذا الفراغ ولا يعرف كيف باستطاعته إنهاء المهزلة. إنه يتساءل دومًا هل يمكن ذلك عن طريق التجربة الدينية؟ أم أنه من الأفضل تحقيق الغرض من خلال التجربة الصوفية الروحية؟ إنه ينشد تلك الحالة من النشوة الروحية التي سمع وقرأ عنها مرارًا، لكنه لا يعلم حقًا أنها تنبع من داخله، فقط إذا أحسَن الإصغاء إلى صوت نفسه.

عليك أن تتحلى بالجرأة الكافية حتى تتمكن من خوض التجربة الروحية الخاصة بك لإضاءة تلك الجوانب الظلامية التي تملأ حياتك، وعليه يمكننا القول إن مَن يلجؤون إلى تناول المواد المُخدرة أو العقاقير المُهدئة هم مَن يحاولون الهرب بشتى الطرق من تلك المواجهة التي يمكنهم خوضها بكل ببساطةٍ ولين، إلا أنهم يميلون إلى تناول مواد سامة متوهمين أنها ستقوم بنقلهم إلى عوالم أخرى، مع أنها لا توفر لهم سوى الشعور المؤقت باللذة، لكنهم يشعرون بالكسل الشديد ولا يرغبون إلا في تبني تلك الاستراتيجية السريعة التي تُلحِق بهم الضرر سواءً على المدى القصير أو البعيد.

إن إدمان الحبوب المُهدئة أيضًا يستهدف خلق تلك الحالة وإن كان الأمر ليس مُشابهًا إلى حد كبير، لكن الهدف العام من وراء استخدامها هو تهدئة الجسد إلى حد الاسترخاء وتنويم العقل مغناطيسيًا، وهذا ما يرغب به بعض الأشخاص الذين يهربون من مواجهة واقعهم المادي بكل صورة مُمكنة وتجدهم يقعون أسرى لهذا الفخ بدلًا من محاولة التجاوب مع التجربة الصوفية الروحية الخاصة بهم لخلق نوع من الاتصال مع الكون الهائل من حولهم، وبذلك فإنهم يُخفقون تمامًا في الارتقاء بأرواحهم على الصعيد الفعلي، فهم لا يحصلون إلا على مُسَكّنات لا تعود بالنفع على أجسادهم أو مستويات وعيهم، ومن ثَم فإنهم لا يعرفون الحقيقة أبدًا.

سبعة مقالات قصيرة

الأسطورة الكُبرى

في البدء عرف الجميع لفظ «الذات»، على الرغم من أنه لم يتمكن أحدهم من وصفه بطريقةٍ دقيقةٍ مُنضَبطة، تمامًا كما الحال مع تلك العيون البشرية التي بمقدورها أن ترى أي شيء حولها باستثناء تلك «الذات» المُشار إليها بالنَفس في بعضِ الأحيان.

يمكننا تعريف كلمة الذات بأنها هذا الشيء الكائن بداخلنا بصورته المُجردة والتي لا يمكننا تسميتها بأية أسماء أخرى، فهي ليست قديمة أو حديثة العهد، وليست صغيرة أو هائلة الحجم، ولا يمكننا وصفها أيضًا بأنها عديمة الشكل أو تحمل شكلًا مُحَددًا. إن الذات لا تشتمل بداخلها على أي عناصر مُتناقضة مُتضاربة، وإنما كل شيء يوجد في هذا الكيان يحيا حالة تامة من الانسجام والتناغُم.

لا تتعارض الذات بأي طريقة مع المحتويات المُشَكّلة لجوهرها الداخلي أو مع محيطها الخارجي، وبسبب هذا التَناغُم، تعيش الذات دائمًا حالة من الانسجام مع كل شيء داخلي وخارجي. إنها ترقص على أنغام إيقاعاتِ الروح. أجل، إنها ترقص وتُغني وتختبر حالات الصمت والسكون والحركة.

يكمن سِر الذات في إضاعتها وإيجادها مُجددًا أثناء قيامها بلعبة الغميضة الروحية تلك، فهي تحيا حالة تامة من البهجة، تقفز خلالها من رُكنٍ إلى رُكن آخر بعالم الروح. إنها لا تهدأ أبدًا، وكيف لها ذلك وهي جزء من وجودنا الكامل؟ فهي تمضي في تنفيذ مهامّها مُنتقلةً من مهمةٍ إلى أخرى دون إحداث أي صَخَب، فتلك

الذات هي التي تعيش حالاتٍ من الوهم والفرح والحزن والضحكات والدموع. إنها تختبر كل شيء مُحاولةً إبقاء نفسها في حالةِ شُغل دائم متواصل، فكل ما تقوم به أنت ما هو إلا انعكاس لما تفعله ذاتك، وكل ما تفكر به هو ثمرة دورها الذهني، كما أن هذا الصوت الذي تسمع صداه في أذنيك هو نتاج همسها المُستمر، فهي ذاك الجزء بداخلك الذي يقوم بكافة المهام، كما أنها تتعامل مع كل أنواع المشاعر.

إن المُثير للدهشة أن ذواتنا لا تتعامل مع المسألة على أنها مُربِكَة أو باعتبارها عبئًا ثقيلًا، إنما تجدها تقوم بذلك بكل انسيابية وانسجام وتَناغُم، فهذا ما يجعل وظيفتها عبقرية تقوم بإنجاز مزيد من المهام والأعمال دون أن تَكِل أو أن تَمِل أو أن تتذمر، كما أنك لن تجدها تُباغتك يومًا بقرارها بالتوقف عن العمل، إذ إن الذات لا تعترف بالعُطلات والإجازات، فكل ما تركز عليه هو الانشغال بما تفكر وتشعر به، أضِف إلى ذلك أنها لا تقوم بعملها في المراتِ اللاحقة بجهدٍ أقل من المراتِ السابقة، فتلك العملية المُمتعة هي ما يمنحها القدرة التامة على الحركة بحرية، فعندما تشعر ذاتك أنها حُرّة تجدها تُبادر بتولي زمام الأمور، وعندما تشعر بأنها مبدعة، تجدها تعكف على إنجاز أعمالها بقدرٍ من الفن والإبداع، وعندما تصفها بأنها حكيمة تُبهرك بأفعالها الحكيمة الرصينة، لذلك فإنه يجدر بك الانتباه جيدًا لتلك الأسطورة الكبيرة التي تحتفظ بها بداخلك، فكما تُعاملها تكون!

من المؤسف أن البشر قديمًا تعاملوا مع الذات باعتبارها مفهومًا غير منطقي وأمرًا غير حقيقي! فقد ظنوا أنهم يتوهمون امتلاكهم لذوات! هذا الأمر الذي عكسته كتاباتهم وإنتاجهم الخاص، فلم يتمتعوا بهذا القدر من الثقة والكفاءة، ولكن مع مرور الزمن -شيئًا فشيئًا- تطورت عقليات البشر ووصلت إلى أعلى

مراحل نُضجها الروحي، الأمر الذي ترتب عليه اعترافهم بالذات وتقديرهم لها، ومن هنا ظهرت الحاجة لوجود كتابات وأبحاث علم النفس التي تخص مُعالجة هذا الجانب شديد الحساسية، وقد تطورت حاجة المرء لمعرفة المزيد من هذا العلم المُحدد، ثم نشأ هذا المجال المُتخصص في علوم تطوير الذات، الذي يهتم أصلًا بمناقشة الجانب الداخلي للمرء، وجميعنا يقرأ ملايين الكتب التي تم تأليفها في هذا المجال والتي عادت بالنفع على البشر فيما بعد.

يمكننا القول إن قصة الإنسان مع الذات قد بدأت -بالفعل- منذ بداية التاريخ كما أشرنا في السابق، إذ إنه قد عاش حالة من الصراع مع تلك الذات التي تسكنه ومضى الحال على هذا المنوال حتى بدأ يطرح على نفسه عددًا من الأسئلة الوجودية التي لم يجد لها جوابًا مُحددًا، والتي تخص وجود هذا الكائن بداخله، كما أنه تساءل مرارًا عن إمكاناته وقدراته، لقد تخبط الناس لحُقَب زمنية طويلة -ولا يزالون حتى الآن- إلا أن رحلتهم لفهم الذات قد بدأت مؤخرًا في العصور الحديثة، ومع أن مسألة فهم الذات التي تسكننا قد يبدو أمرًا مُعقدًا بعض الشيء إلا أنه من الممكن الوصول إلى طريقٍ يُرشدنا إليه.

فقد قيل في السابق إن هذا الإنسان الذي يفهم نفسه ويعقد اتصالا دائما معها هو القادر على تحقيق أفضل النتائج على كافة المستويات، كذلك أود أن أُضيف أن هذا الشخص الذي تدرب على الإصغاء لصوته الداخلي الذي نُطلِق عليه اسم الذات هو الأكثر قدرة على مواجهة هذا الشعور بالوحشة الذي يختبره البشر منذ بداية الخَلق، فعندما يتحدث المرء إلى ذاته، فإنه يضع خطة مُحددة لإبراز أهم نقاط قوتها وضعفها وليدرس جيدًا كيفية تطويرها وتحسين مستوى أدائها على النحوِ المنشود.

ففي تلك اللحظة التي يُدرك فيها المرء أن كلمة «أنا» التي يستخدمها مرارًا تُعبر في حد ذاتها عن تلك «الذات أو النفس» الداخلية له سوف يستشعر حينها مدى قوة وتأثير تلك الكلمة، فمَن يعرفون هذا السِحر جيدًا هم مَن يميلون إلى تطبيقه في السياق العام، فلن تجد شخصًا واعيًا بأهمية وقوة الدور الذي تلعبه «الذات» يقول «أنا فاشل أو أنا قبيح أو أنا ضعيف»، فكلمة أنا والتي تعني الذات لابد أن يتبعها سيل من العباراتِ الإيجابية الجاذبة للوفرة والثراء والخير والنجاح، ولا ينبغي أبدًا أن تصحبها عبارات سلبية، فمَن يُدركون هذا السِر يتمكنون من تحقيق أعلى مستوياتِ النُضج الروحي والعقلي والفكري، فهم يمضون في طريقهم لتحقيق غاياتهم من خلال تطويع تلك الذات، ذات القدرات الفائقة مُتعددة المهام التي تسكن كياناتهم الشخصية.

روح الماندالا العظيمة أو فن البهجة

ما هي الماندالا؟

الماندالا أو الدائرة، هي مجموعة من الرموز استعملت من قِبل الهندوسيين والبوذيين للتعبير عن صورة الكون الميتافيزيقي، وقد بدأ هذا الفن في منطقة التبت بالهند، ثم انتشر بعد ذلك في الكثير من دول العالم، وتعني كلمة «ماندالا» في اللغة «السنسكريتية» الدائرة أو القرص إنها عبارة عن دائرة تتكرر فيها الدوائر والأشكال الهندسية المختلفة، وكلما تعمق الرسام في دائرته كلما وصل إلى تركيز وهدوء داخلي عميق، حتى أنك لتشعر بجاذبية قوية بين الرسام ودائرته، تجذب عينيه وقلبه وفكره وتركيزه، أما تسميته بفن البهجة، فلأنه يدخل السرور والفرح على النفس، لذلك فهو يعد أحد الفنون التي ثبت علميا دورها الإيجابي في معالجة التوتر الناتج عن ضغوطات الحياة.

لقد أبهر هذا الفن الناس في مختلف بقاع الأرض، وليس الهند فحسب، ذلك الفن الذي يظهر في شكل النوافذ الوردية للكاتدرائيات القوطية والفسيفساء البيزنطية للشكل الداخلي للقُبة.

الماندالا، أو ما يسمى بفن البهجة، هو أحد الفنون التي لا تتطلب دراسة ولا موهبة فنية، إذا صادف وكانت أمامك ورقة بيضاء في وقت شرود ذهنك أو حديثك عبر الهاتف أو إصابتك بالملل، ففي أغلب الحالات ستجد أن الورقة قد امتلأت برسوم وأشكال فنية، وهذا مؤشر على أهليتك لرسم الماندالا، لقد أتقن الهنود هذا الفن وقاموا بنشره في كافة أرجاء العالم كنوع من أنواع العلاج الذاتي، ويستخدم هذا الفن كشكل من أشكال التعبير، وهو من الفنون التي

تهدف إلى تحسين الصحة النفسية وتحفيز التركيز والإبداع والانسياب وتحقيق الانسجام، كما يزيد من الصفاء الذهني للفرد.

أنواع فن الماندالا

يمكن تصنيف فن الماندالا من حيث تقنية التصميم إلى عدة أنواع، نذكر منها ما يلي:

الماندالا الهندسية: وهو النوع الذي يعتمد على الأشكال الهندسية البسيطة في الرسم، حيث يكون لهذه الأشكال نقطة مركزية واحدة تتفرّع منها الأشكال الهندسية الأخرى كالدائرة، وشبه الدائرة، والمربع، والمثلّث وغيرها.

الماندالا المختلطة: وهو النوع الذي يعتمد على الرموز الروحانية المختلفة في تصميمه؛ كالهلال، أو النجمة، أو صور الفضاء، والكون وغيرها، وفي الكثير من الأحيان يتّخذ هذا النوع شكلًا مربعًا لتكوين زوايا لها بُعدٌ روحاني.

ماندالا الحروف: وهو النوع الذي تدخل فيه الحروف الأبجدية للّغات، إذ يمكن أن تحتوي اللوحة مثلاً على شكل معين كالدائرة، أو النجمة، أو الزهرة وغيرها بحيث تكون مشكلة من حروف لغةٍ معينةٍ، أو العكس أن تكون هنالك مجموعة من الأشكال الهندسية أو الجمالية أو اللغوية تشكّل معًا حرفًا كبيرًا من لغة معيّنة.

الرمزية في فن الماندالا

توجد العديد من الرموز المستخدمة في فن الماندالا، وفيما يلي ذكر لبعضها ودلالتها:

زهرة اللوتس: ترمز هذه الزهرة بالتحديد في فن الماندالا إلى التوازن والتناسق.

الشمس: ترمز صورة الشمس في هذا الفن إلى تمثيل الكون والحياة والطاقة.

الجرس: يرمز الجرس في الماندالا انفتاح وتفريغ العقل للسماح بدخول الحكمة والوضوح.

المثلث: يدل المثلث إذا كان رأسه للأعلى على الطاقة، أما إذا كان رأسه للأسفل فيدل على الإبداع والسعي وراء المعرفة.

عجلة بثمانية مكبرات صوت: ترمز العجلة إلى الكون المثالي أما مكبرات الصوت فلها دلالة بوذية.

تاريخ فن الماندالا

يرجع فن الماندالا في أصوله إلى الحضارة السنسكريتية (حضارة هندية قديمة)، إذ قام البوذيون والهندوس باستخدام هذا الفن لتصميم الرسومات الدينية لتساعدهم على التأمل والاسترخاء، كما تمثل الدائرة الشائع استخدامها في هذا الفن رمزًا روحيًا وطقسيًا لدى الهندوسية والبوذية لكونها تمثل الكون، بعد ذلك استخدم المسيحيون هذا الفن في الرسم على جدران الكنائس، أما المسلمون فقد استخدموا الرسوم الهندسية والنباتية الموافقة للشريعة الإسلامية بعيدًا عن الرسومات ذات الدلالات الروحانية، وفي القرن الثالث عشر تم تقديم فكرة استخدام الأنماط الهندسية لكي تمثل جمال خلق الله لأول مرة، ثم انتشر بعد ذلك في الكثير من دول العالم.

حول اختيار الذبذبات التي تُلائمك

هل تعلم أنك تملك القدرة التامة على تشكيل حياتك كما تريد؟

أجل، فتلك هي الحقيقة التي أثبتها العلم الحديث، فعندما تقوم بدورك باختيار ذبذباتٍ إيجابية مُحددة فإنك تجذب لنفسك ولواقعك مزيدًا من الأحداث والمشاعر الإيجابية الجيدة، بينما إذا تفاعلت وتأثرت بذبذباتٍ وطاقاتٍ سلبية، فإن هذا يعود إليك بدوره، وتجد نفسك أسير سلسلة من الأحداث والأفكار والمشاعر السلبية.

إن الأمر أشبَه بتلك الطريقة التي يعمل بها السِحر، كما أن ما تقدمه يعود إليك، فتلك الذبذبات الصادرة عنك تعود إليك -من جديد- وتجذب إليك نمطًا مُشابهًا مُماثلًا من الأحداث والظروف.

مع أن تلك الحقيقة في غايةِ البساطة، إلا أن معظم البشر غير قادرين على تطبيقها بشكل دقيق، فإما أنهم يتجاهلون الأمر لعدم إيمانهم به أو أنهم كسالى يعتقدون أن تنفيذ تلك الفكرة تتطلب مزيدًا من المجهود، في الواقع لا يستغرق تنفيذ ذلك وقتًا طويلًا، كما أنه لا يتطلب مجهودًا يُذكَر، فكل ما يتعين عليك فعله هو أن تلتزم بتكرار عدد من التأكيدات الإيجابية حول نفسك ومحيطك وما تنوي القيام به، وحينها فقط ستكتشف بنفسك علامات التغيير الإيجابية الظاهرة في حياتك، كما أن المعتقدات الهندوسية والبوذية القديمة وكذلك مختلف الديانات الأخرى قد ركزت على فكرة رئيسة وهي أن تضع الخير نواةً لأفعالك، فإذا كان ما تسمعه خير، وما تقرؤه خير، وما تراه خير، وما تفكر به خير؛ ستكون النتيجة الكُلية الشاملة لهذا كله أمرًا جيدًا إيجابيا يحمل بداخله رائحة الخير، بينما إذا

كنت تتحدث بلؤم وتستمع إلى أحاديثٍ خبيثة وتفكر بشكلٍ سيئ، فإنك لن تجذب إلى عالمك إلا مزيدًا من الأشياء السيئة، فطبقًا للقوانين الفيزيائية العلمية وكذلك كتب علم النفس فتلك هي الطريقة التي تسير بها الأمور.

نحن لا نعلم مدى قوتنا الحقيقية، إذ إننا نمتلك بداخلنا طاقة كونية هائلة تملأ العالم بأسره، تلك التي تُمكننا من جذب ما نريد بالطريقة التي نريدها، فإذا راقب الإنسان أفكاره، ومعتقداته، وكلماته سوف يمتلك القدرة التامة على التصرف بطريقة إيجابية تُحقق له أهدافًا وغايات مُذهلة، وبناءً على ذلك فإنه يجدر بك إبقاء تركيزك على ما تفكر به أو ما تشعر به أو ما تقوم به، فإذا كنت تستمع إلى موسيقى حزينة على سبيل المثال، فإنه عليك مُراقبة مشاعرك خلال اللحظة ذاتها فإذا وجدت نفسك تشعر بالضيق والحَنق المُباغت، فإنه يتعين عليك الانتقال من تلك الحالة فورًا من خلال تغيير طريقة تفكيرك وشعورك، عليك أن تشعر بالفرح والبهجة والامتنان لتغمرك مشاعر السعادة.

إن تقديرك لتلك الحالة من الفرح المُمتزجة بالحيوية والنشاط هو ما يجعلك تحظى بمزيد من تلك الحالات التي تتوافق وتنسجم معها، فكل ما ينبغي لك فعله هو التأهب لإخراج ذبذبات وطاقات إيجابية لتأتيك بدورها بذبذباتٍ وأفكارٍ مُطابِقَة مُماثلة -في وقتٍ لاحق-.

لقد ساهمت الكثير من الأفكار الثقافية والمعتقدات الخاطئة والتقاليد في إقامة جدار هائل ليفصل بدوره بين المرء والكون كما أشرنا، وحينها ظن الإنسان أنه كائن مُستقل مُنفصل عن الكون من حوله، الأمر الذي تسبب في وجود قدر هائل من المفاهيم غير السليمة المُلتَبِسَة التي تخص قضايا معرفة الإنسان بذاته ومفهوم الكون وعلاقتنا به وغيرها من الأشياء الأخرى شديدة الأهمية.

يجدر بك عزيزي القارئ أن تتعلم كيف بمقدورك أن تتوافق مع هذا التيار الكوني الهائل، فأنت تنتمي إليه في نهاية المطاف، فعندما تتحرك بكل حرية مع الاتجاه الطبيعي لوجودك الكوني، فإنك تتألق وتنجح في تحقيق مقاصدك وأهدافك المُجرَدَة وتحويلها إلى واقعٍ مادي ملموس، فكل ما عليك فعله هو أن تُرسِل إلى الكون الهائل ذبذباتٍ إيجابية لتحصل بدورك على ذبذباتٍ وطاقاتٍ مُطابقة، فتلك هي الطريقة التي يعمل بها كل شيء في هذا الكون منذ البداية.

غرس البذور وجمع الثمار

ينبغي لنا جميعًا الإيمان بتلك العبارة الشائعة القائلة إننا نحصد ما نزرعه، فإذا زرعت لتوك أفكارًا إيجابية ستحصد أفعالًا إيجابية، وإذا زرعت مشاعر يملؤها الحب والحنان ستجني النتيجة ذاتها، وهكذا، كما أن مسألة التغيير أو التحول الذاتي المزعومة أشبَه بالدائرة المفرغة، فكما قال دوجين أستاذ فلسفة الزِن اليابانية وأحد علماء القرن التاسع عشر أنه لا يمكن للربيع أن يستحيل صيفًا، كما أنه ليس باستطاعة الحطب أن يتحول إلى رماد، فهناك ربيع، وهناك صيف، وهناك حطب وهناك رماد. وكما أظهر لك القول السابق، فإنه لا يمكن أن يستحيل الكائن الحي إلى جُثَة، ولا يمكن أن يصبح الشخص العادي غير المُستنير بوذا، ولا يمكن أن يصبح يوم الإثنين يوم الثلاثاء، ولا أن تصبح الساعة الواحدة الساعة الرابعة، فأن يتحول الشخص غير المُثقف غير المُستنير إلى إنسان مثل بوذا يعني أن نغسل الدماء بالدماء، كما أن هذا المثال أيضًا يُشبه أن نقوم بصقل كُتلَة حجرية ما لصناعة مرآة مصقولة، وهذا يتفق مع ما قاله الفيلسوف تشوانغ تزو:

«في كثيرٍ من الأحيان ترى البيضة بعينيك، لكنك تظن أنها غُراب وتنتظر لأن يصيح»

إن الشخص الأناني دائمًا هو مَن يرغب في أن يكون أكثر ثراء وسعادة وبهجةً دون أن يُقَدم شيئًا ما لمساعدة الآخرين من حوله. إنه يظن أن المسألة تعتمد فقط على فكرة «التمني» لكن الأمور لا تسير على هذا النحو، فكل شخص يحصل على شيء ما يقوم بتقديم مزيد من الأشياء بهدف الحصول عليه، فكافة أولئك المُحسنين ممَن يقومون بأعمالٍ خيرية يتبرعون بأموالٍ هائلة لأناس

مختلفين حول العالم، كما أن أولئك الأشخاص الناجحين في مجالاتهم يمدون يد العون للأشخاص الآخرين لمساعدتهم على المُضي قُدمًا، فالمسألة برمتها تتوقف على فكرة العطاء، فإذا استطعت أن تمنح للآخرين الكثير من الأشياء، امتلكت القدرة التامة على الحصول على كل ما تُريده، كذلك المسألة لا تتوقف فقط على مساعدة الفقراء والمرضى والمحتاجين من البشر، لكنها تمتد إلى مساعدة أي كائن حي على هذه الأرض سواء أكان حشرة أو نباتًا أو حيوانًا أو طائرًا، فما تقدمه يعود إليك مُجددًا في هيئةٍ أخرى.

إن الطريقة الوحيدة الفعالة من أجل إيقاف أي أمر سلبي يحدث لك هو أن تتوقف عن غرس بذور هذا الشيء، فعليك أن تعلم أن الكراهية التي تُعاني منها الآن، والتي تتمثل في معاملات الآخرين الظالمة وغير الجيدة لك هي حصاد مُعاملاتك السابقة التي غرست فيها ذات البذور، كما أن حالة الفقر التي تعيشها في الوقت الزمني الراهن هي حصيلة كافة تلك الأفكار السلبية الفقيرة التي حرصت على غرسها بداخل عقلك، كما أن حالتك الصحية السيئة تلك هي نتاج مجموعة عادات سلبية قد أجبرتك بدورها على الوقوع في فخ المرض -في نهايةِ المطاف-.

تذكر دائمًا أن ما تحياه اليوم ما هو إلا نتيجة كلية لتلك البذور التي قمت بغرسها في السابق، فأنت تحصد ما تزرعه على أي حال، لذا؛ راقِب نوعية الأفكار والمعتقدات التي تضعها في رأسك، فكل شيء يبدأ وينتهي من تلك النقطة.

جدير بالذكر أن آفة العقل الحقيقية هي تلك المتجسدة في قلة الوعي، كأن تسيطر عليك حالة فكرية متدنية تجعلك غير قادر على التفكير بشكلٍ حُر دون عوائق أو عقبات، فإذا تَدَرّب المرء منذ صغره على التفكير بشكلٍ سليم، فحينها

يمكنه امتلاك القدرة على الخلق والإبداع، وتلك هي القاعدة الأساسية التي استندت عليها مجموعة من أساليب التفكير التأملي الشرقية المتطورة مثل فلسفة الزِن اليابانية، ومدرسة كونفوشيوس الصينية، وكذلك فن التاو، فليس باستطاعة العقل أن يُحقق أية نتائج مُذهلة دون أن يتجاوز كافة حدوده، فكلما وضعت تلك الفكرة البسيطة بداخل عقلك، كلما تمكنت من التحليق عاليًا في السماواتِ المفتوحة للخيال والعلم بمجالاته المُتعددة. يعد ضيق الأفق بمثابة أحد أهم وأكبر العقبات التي تواجه الإنسان، فكلما عجز الإنسان عن تأمل وضعه الذاتي وعلاقته بالعالم الأكبر المُحيط به، فإنه يسقط في بحرٍ من الجهل بأدق الأمور التي تتعلق بوجوده، ومن ثَم يفقد القدرة على الحكم على الأمور وتقييمها بشكلٍ حيادي جيد، فذاك الصفاء الذهني هو ما يجعلنا قادرين على التصور والركض بعيدًا بصحبة مخيلتنا الجامحة، وقد كرست المدارس الفلسفية القديمة والحديثة جهدها الأكبر من أجل تنمية قدرات الإنسان العقلية والبحث العميق في غاياته وأهدافه.

Telegram:@mbooks90

يتعين علينا القول إن هدف فلسفات التأمل الشهيرة مثل الزِن، والتاو، وغيرها يعتمد أساسًا على إزالة أي «ارتباك أو التباس فكري»، فهذا هو ما يهم أثناء عملية تسليط الضوء على القضايا والأفكار المهمة، إذ إنه من الضروري توضيح هدفك قبل الانغماس في عملية التفكير بعُمق، تمامًا كتلك الطريقة التي يعتمدها فن الماندالا الهندية، فإنه من المفترض أن يعبر الإنسان عن كل ما يشغله في ورقةٍ بيضاء من خلال الرسم وكذلك عبر الكتابة.

فقد ساعدت كتابة اليوميات عددًا كبيرًا من رواد الأعمال الناجحين والكُتاب البارزين في المجتمع، وكذلك عدد من الفلاسفة والعلماء على تحسين قدراتهم

العقلية وتركيز انتباههم على أهدافهم من أجل وضع خطة مُحكمَة لتغطية كافة تلك الأشياء التي يرغبون بها، فمن خلال الكتابة تقوم بتدريب عقلك على تَخيُل أمور كان يظن أنها مستحيلة بعيدة المنال.

بصفتي كاتب أعمل في مجال الفلسفة والتعبير اللفظي منذ مدة طويلة، فإنني أعرف جيدًا ما أتحدث عنه في هذا السياق، إذ إن الكلمة تمتلك قوة لا يُستهان بها، فعندما تضع بضع كلمات على ورقةٍ بيضاء، فإنك تشعر بقوتها تُحركك من مكانك وتدفع بك إلى سبيل تحقيق هدفك، فإذا التزمت بخطةٍ يومية معينة سوف تتمكن من إنجاز عدد لا يُحصى من المهام الكُبرى، لقد كنت أظن في السابق أنني لن أقدر على إتمام كثير من المهام التي اكتشفت لاحقًا أنني قد حققتها -بالفعل-.

أذهلتني الطريقة التي جرت بها الأمور، فالكتابة وسيلة سحرية لتحقيق الأهداف والغايات، فهي تعمل على تحفيز العقل، كما أن هناك مقولة شائعة تقول «إذا أردت تحقيق هدف ما لا تتحدث عنه، اكتبه فقط!»

فهذه هي إحدى أبرز الاستراتيجيات التي تستهدف تحقيق الآمال والأهداف الشخصية، فكتب السير الذاتية تعج بهذه القصص المُلهمة التي استطاع أصحابها تجاوز الصعاب من خلال الحفاظ على روتين الكتابة اليومي، فعندما تشرع في كتابة خطة تفصيلية مُحَددة من أجل إنجاح مشروع تجاري ما أو عند كتابة أهداف رحلتك البحرية إلى مدينة ساحلية ما، فإن تلك الخطوات المُحددة التي تعكف على كتابتها هي ما تمنحك القدرة التامة على وضع هدفك أمام عينيك والبدء في تمهيد السُبل للقبض عليه.

إن الكتابة أيضًا هي إحدى وسائل تعزيز الثقة بالنفس والشفاء الذاتي، وهناك العديد من القصص التي تمكن أصحابها من تحقيق معجزة «الشفاء» دون تناول العقاقير والأدوية فقط من خلال الحفاظ على روتين الكتابة اليومي، إذ إنها ترفع من كفاءتك الذاتية وتنهض بحالتك المعنوية الراهنة لتصل بوعيك إلى مراحل النضج الروحي والجسدي المنشودة، فكل ما أنت بحاجته الآن هو أن تحضر ورقة وقلم لتبدأ كتابة خطتك التفصيلية المحددة من أجل تصميم قصة نجاحك الخاصة على طريقتك.

لقد نجحت معي تلك الطريقة الفاعلة مرات عدة، ففي كل مرة راودني فيها الغضب والملل والضجر والضيق وجدت نفسي أمضي للبحث عن ورقة بيضاء وقلم لأشرع في قهر هذا الصراع الداخلي الذي أحياه فقط من خلال سِحر الكتابة اليومية.

الفن

يمكننا القول إنه لم يكن هناك أي أثر للفنون قبل خمسمائة عام، فمنذ هذا الزمن الطويل، لم يكن هناك متاحف أو معارض فنية قديمة أو حفلات موسيقية، كما أن تلك الطبقة المُحددة من الفنانين لم يكن لها أي وجود على الإطلاق، فتلك المتاحف والمعارض والحفلات وكافة الصور الفنية التي نراها في شتى مجالات وميادين حياتنا الآن ما هي إلا استعراضًا لتلك الثقافات والفنون والأشكال التعبيرية للأحداث والظروف المجتمعية والإنسانية التي وقعت في السنواتِ والحُقَب الزمنية السحيقة، فلولا أننا قمنا بهذا الإنتاج الفكري والثقافي والإبداعي والصوفي لحيواتنا اليومية، ما كان لنا أن نجد شيئًا بعينه لنُزين به متاحفنا القديمة تلك التي أصبحنا نقوم بزيارتها والذهاب إليها بغية خلق نوع من التواصل مع أشكال الثقافات والحضاراتِ القديمة الماضية، فنحن نود أن نعرف كيف كان إنسان العصور الماضية يضحك ويفكر ويُجادل؟ فالمسألة برمتها تبدو وكأنها شريط فيلم تسجيلي لحياة إنسانٍ واحد، وكأن تلك الحياة التي يحظى بها الإنسان في مدة الأربعينيات مثلًا ما هي إلا امتدادًا واضحًا لحياته في مدة العشرينيات، وهكذا على الرغم من أن هذا الإنسان نفسه قد يكون غير موجود على هذه الأرض الآن إلا أنه يُكمِل رحلة وعيه العام من خلال وجود أقرانه من البشر، كذلك الأمر ذاته ينطبق على تلك الفنون العظيمة التي أنتجتها عقول البشر، فإذا تأملنا جيدًا سنجد أن الفنون التي توصل إليها الإنسان في بداياتِ العصور الإنسانية لم تكن إلا مجرد صورٍ بدائية بحتة، ومع ذلك فهي تظل تمثل أشكال الفن التي عرفها، فقد توجه الإنسان إلى الفنون بكافة أشكالها حتى يتمكن من التعبير عن نفسه بمختلف الطرق، فإذا قام بالرسم والكتابة أو

التمثيل أو الغناء أو العزف أو غيرها فلأنه يود أن يقوم بترجمة عددٍ من المشاعر والأفكار الغامضة غير المفهومة المُربِكة التي تحتل عقله وكيانه، فلا يجد سبيلًا إلا إخراجها بتلك الصورة الإبداعية، والفنون أيضًا لا ترتبط بدورها بأمور التقدم العلمي وحركة الأبحاث في مجال العوالم الرقمية والتكنولوجيا المتطورة، وإنما ترتبط بشكلٍ وثيق بشعور الإنسان في التعبير، إذ إن رغبته التعبيرية الأصيلة تلك هي ما تجعله يخلق أشكالًا لا نهائية فنية بديعة.

إن عملية الخلق الفني بأسرها ترتبط بشدة برغبة الإنسان البالغة في الشعور بتلك النشوة التي تغمر الروح بعد مُبادرة المرء بعملٍ إبداعي أصيل، فالأمر ذاته في علاقة الإنسان بالتجربة الصوفية على مر الزمان، إذ إنه يرغب بشدة في خلق هذا الشعور الذي يجعله يشعر وكأنه ينتمي إلى عالمٍ آخر.

لا يمكن للإنسان بأي حال مُقاومة تلك اللذة التي تغمر روحه عند اختبار الفنون، تلك التي تجعله يبدو وكأنه يُحلِق في سماواتٍ بعيدة. وربما لهذا السبب ذاته فإنه يعكف على خلق وصناعة هذا النوع من الإنتاج الإبداعي مهما كانت العقبات والصعوبات التي تواجهه، إذ إن تلك العملية الإبداعية أيضًا تتطلب قدرًا هائلًا من الصفاء الذهني، ولهذا السبب فقد عاش المرء مراحل من الصّراع الداخلي مع هذا الشعور دون أن يعرف لقرونٍ طويلة ماهيته وطبيعته وكيف بإمكانه تطويعه وإخضاعه كما يرغب؟

إن كل شيء يبدأ من صفاء العقل، فإذا كان هذا الأخير بخير حال، فإن صاحبه يصل إلى أعلى مستويات الوعي والإبداع، فكل هؤلاء الأشخاص المُبدعين على مدار التاريخ قد نجحوا في تكريس أوقاتهم وجهودهم من أجل الحصول أولًا على تلك الحالة الذهنية الإيجابية، ومن ثَم فإنهم يتمكنون من المُضي قُدمًا

والبدء في رسم عالمهم الخاص الذي يُبدعون من خلاله، فإذا أردت أن تصبح أحد هؤلاء، فإن كل ما عليك القيام به هو أن تُصغي جيدًا لصوت نفسك فأنت لا تعرف شيئًا عن كل هذا السِحر الذي يملأ روحك ويُعرَف باسم الإبداع، فهناك عدة شروط رئيسة من المفترض أن تتوافر لديك حتى تتمكن من تحقيق أكبر استغلال ممكن لتلك الثروة التي تملكها بداخلك، لعل أبرزها أن تصبح أكثر صِدقًا وأمانةً مع ذاتك، إذ إنه يجدر بك أن تتجاوب -بصراحة- مع كل فكرة جديدة تأتيك بغتةً، وينبغي لك أن تسأل نفسك: ماذا لو كانت تلك الفكرة أصلية؟ هل بمقدوري أن أصبح شخصًا مُبدعًا حقيقيًا إذا قمت بتطويعها والعمل عليها؟

وحتى يتسنى لك تحقيق هذا الهدف، فإنه يتوجب عليك أولًا أن تتعلم كيف تروّض أفكارك، فكافة البشر يقعون أسرى لمجموعاتٍ متنوعة من الأفكار، تلك التي تشتمل على الأفكار الإيجابية والسلبية وكافة أنواع المشاعر أيضًا، ولهذا فإنه عليك أن تجلس في مواجهة فكرتك تلك لتسألها بوضوح: أي الأفكار أنتِ؟ وحينها تبدأ في تصنيفها بشكلٍ أولي، فإذا كانت فكرة سلبية، تعين عليك تجاهلها وإهمالها، وإذا كانت فكرة إيجابية فإن ما يجدر بك القيام به في ذلك الحين هو أن تقوم بتأملها ودراستها جيدًا لتعرف إلى أي الطرق سوف تقودك بدورها؟

لا شيء أكثر أهمية هنا من أن تطرح على نفسك هذا النوع من الأسئلة وأن تُجيب عليها بكل صراحة، فلا يمكنك أبدًا أن تخدع نفسك في تلك الحالة لتصل إلى وجهتك المنشودة.

يجدر بنا الإشارة إلى أنه من المؤسف حقًا وقوع معظم البشر في عصرنا الحالي في فخ الأفكار السلبية غير الإبداعية، تلك التي تجعلهم غير قادرين على الوصول إلى وجهة النجاح والتحقق، ويمكنني أن أؤكد أن مثل هذا النوع

من الأفراد يكون غالبًا ممَن يُعانون من حالاتِ القلق والأرق والتوتر وانعدام الأمن، فأولئك لا يتمكنون أبدًا من الوصول إلى طريق تحقيق أهدافهم، وعلى الرغم من مُصادفتهم لعددٍ هائل من الأفكار الإيجابية الجيدة الإبداعية خلال رحلتهم الخاصة إلا أنهم لا يلتفتون إلا نحو تلك الأفكار لانغماسهم الشديد في الأفكار السلبية غير المُجدية، فالشخص الظلامي المُتشائم لا يلتفت إلى منظر السماء البديع في يومٍ مُشرِق، كما أن تلك التفاصيل المُبهجة اللطيفة التي قد تواجهه أثناء رحلته على الطريق لا تهمه أبدًا، فكل ما يشغل عقله هو تلك الأفكار السلبية التشاؤمية التي تخص الغد، فهو يؤمن في قرارة نفسه أن كل ما ينتظره في المستقبل يتسم بالسوء لذلك ستجده يقع أسير لنوباتِ الهلع وحالات القلق الشديدة نتيجة تركيزه على هذا النوع السلبي من الأفكار، وهذا على نقيض الشخص الإيجابي المُتفائل الذي يعرف جيدًا كيفية القيام بفحص أفكاره الواردة وتصنيفها حتى يقوم بإزالة تلك الأفكار الفاسدة والتركيز على تلك الإيجابية، فالطريق إلى الإبداع لا يتحقق إلا من خلال الإيمان بقوة الأفكار الإيجابية، تلك التي تأتي صاحبها بغتةً -دون سابق إنذار- وكل ما عليه فعله حينها هو أن يبدأ في التعامل الفوري معها، فإما أن يتبنى تلك الأفكار ليخلق عالمًا مُبتكرًا جديدًا أو أن يُلقي بنفسه في عوالم الأفكار السلبية غير الإبداعية التي لا تؤدي إلى مكان.

في الواقع إن سِر عبقرية الأداء الفني تتمثل في تلك العبارة التي تقول:

«القيام بالفن من أجل الفن.»

أجل! فما من غرضٍ آخر في تلك الحالة سوى الفن، فالأمر في حد ذاته يتمثل في قياس مدى صدق الإنسان ورغبته الأمينة في التعبير عن تلك الأشياء والمشاعر التي تُخالجه فقط من أجل تعزيز القيمة الفنية وبلوغ الإحساس

العميق السامي بالنشوة التي أشرنا إليها في السابق، فهذا الموسيقار العبقري لم يصل إلى تلك المرحلة من الإبداع والتفوق إلا من خلال إخلاصه الذاتي الشديد لتلك العبارة «القيام بالفن من أجل الفن»، إذ أن أنصار هذه المدرسة هم مَن يتمكنون من تجاوز حدود قدراتهم وإمكاناتهم حتى يصلوا إلى أعلى مراحل الوعي بالعملية الإبداعية، فستجده مثلًا يعمل جاهدًا في نظم موسيقاه والعزف على آلاته بغية تنظيف الأذن البشرية من كافة أشكال التلوث السمعي والغرور والكبرياء. إن المسألة الإبداعية الأصيلة هنا تتجاوز فكرة السماع المُجرد العابر للموسيقى، هذا ما تعكسه روح الفنان التي تتعمق في الإبحار في هذا الجانب من خلال تعزيز المخيلة، فلن تجد أبدًا شخصًا مُبدعًا تمكن من تجاوز حدود قدراته لكنه يمتلك مُخيلة محدودة أو أفقًا ضيقًا، فالفنان المُبدع دائمًا يعرف كيف يركض خلف أفكاره المجنونة غير التقليدية في كل مكان حتى يقوم باقتناصها بكل مهارة، فهو لا يؤمن أبدًا بالعيش في صندوقٍ فكري ضيق يُملي عليه أفكاره، كما أن هذا الرسام الذي استطاع أن يصل بأعماله الفنية التشكيلية إلى أعلى المستويات قد تمكن من الإيمان بقوة أفكاره ودَرَب مخيلته على الركض بعيدًا خلف كل ما هو غير تقليدي، كذلك الحال بالنسبة لهذا الكاتب العبقري، فالمسألة برمتها تتمثل في تلك الجوانب.

علينا القول أيضًا إن تحقيق هذا الهدف ربما يتوقف على المستوى الروحي للمرء، فالفنان المُبدع يمتلك قدرات روحية هائلة تجعله يُسافر من عالمٍ إلى آخر، فلن تجد فنانًا حقيقيًا في أي مجالٍ من مجالات الفنون قام بتقييد روحه بأغلال المادة، فمن القواعد الرئيسة للفن أن يفكر بطريقة غير مألوفة، وبناءً عليه فإنه لا يلتزم فقط بما يراه أمامه بشكلٍ مُباشر على أرض الواقع المادي الملموس.

لقد عكف الإنسان منذ البداية على الذهاب إلى المسارح لمشاهدة أقرانه من البشر يقومون بتأدية أدوار تمثيلية لجوانب الحياة التي يختبرها. فها هو يراهم يُجسدون تلك المسرحيات الهزلية والدرامية والحزينة والمُبهجة. ها هو يجلس في إحدى الزوايا يُراقب أداء المُمثلين شاعرًا بالتوحد معهم. ها هو يُصفق لهم إذا أجادوا التعبير عما يشعر به، إذ إن فن التمثيل -في نهاية المطاف- هو أحد الأشكال التعبيرية لذات الإنسان ومشاعرها المختلطة والمُتناقضة كما أنه أصعب وأرقى الفنون.

كما أن المرء اعتاد الذهاب إلى المعارض الفنية التشكيلية لمُعانقة تلك اللوحات المُعلقة، تلك التي تحمل جزءًا من عمق روحه، ليشعر وكأن الفنان كشف عنه أمام الجميع دون أن يشعر، كذلك الحال مع الحفلات الموسيقية الغنائية والراقصة وكذلك الأعمال الروائية والشِعرية، فما يفعله المرء هنا أنه يذوب وسط كل تلك الوسائط الفنية السحرية التي تجعله يشعر وكأنه خُلق لتوه فقط من أجل تلك اللحظة!

لقد تطورت أشكال الفنون مع مرور الوقت، وظهرت الكثير من المدارس الفنية سواء في مجالات الفن التشكيلي أو الكتابة الإبداعية أو النحت أو الغناء أو الموسيقى أو التمثيل وغيرها، ويمكننا القول إن تطور هذه الأشكال الفنية قد جاء كنتيجة طبيعية ومنطقية لحالاتِ التطور الهائلة أيضًا التي قد شهدتها جوانب الحياة بأسرها، فالجوانب الإنسانية السياسية والاجتماعية والنفسية والاقتصادية والبيئية قد تركت بصماتها على حياة المرء، ومن ثَم فقد جعلته يقوم بصياغة وتشكيل فنونه القديمة تلك بطرقٍ مختلفة تعكس كل هذا القدر من التغير الكبير الذي اختبره بنفسه، فالمدارس الواقعية، والتجريدية والتجريبية،

والتخيلية وغيرها جاءت كرد فعل إنساني طبيعي لكل حالات التغيير الكبيرة التي عصفت بالإنسان في مراحل حياته المختلفة، فتلك هي الطريقة الوحيدة التي يتشكل بها الوعي الفني الجمعي فقط من خلال التجارب والمتغيرات العامة الهائلة.

عندما اخترع الإنسان الرسم والكتابة والتمثيل والغناء والعزف والنحت وغيرها، أراد التعبير عن شيءٍ ما يُخالج نفسه ويُشعره بعواطفٍ عجيبة لم يختبرها من قبل. لقد أراد أن يصرخ بأعلى صوته مُتسائلا: ما هذا؟

إنه لا يعرف كيف يُعبر عن كل هذا الارتباك الذي يسكنه لكنه يحاول مرارًا وتكرارًا من خلال كافة أنواع الفنون، ففي بعض الأحيان تصل فكرته بشكلٍ مُباشر، وفي أحيانٍ أخرى لا تصل على الفور، إنما تتلكأ في طريقها لتبدو لبعض الناس عصية على الفهم أو غير مُباشرة، وقد يتعمد المرء القيام بذلك، وقد لا يتعمد أبدًا تطبيق تلك النظرية، فقد تجده يُصِر على إيصال معان غير مُباشرة لأهدافٍ ما، وقد يُفَضل تلك الطريقة المُحَددة للكشف عن عبقريته وفنونه، وعلى أي حال فإنه يصل إلى أعلى مستويات وعيه من خلال تدريب نفسه على التطور من خلال أداة الفن والتي قد أثبتت جدارتها المُستَحَقَة على مر العصور.

البوذية عند ألدوس هكسلي

لقد عبر الكاتب البريطاني ألدوس هكسلي في كتابه الضخم «الجزيرة الفاضلة» عن وجهة نظره الفلسفية في الحياة بأعلى مستوى ممكن من النضج العقلي والروحي، إذ أنه ينبغي لنا أن ننظر لهذا الكتاب السابق الذكر باعتباره عملًا فلسفيًا أكثر من كونه رواية.

يجدر بي القول إني قد لاحظت حالة التطور العميقة التي شهدتها كتابات ألدوس هكسلي خلال تلك السنوات المُنقضية بعد تأليفه كتاب «الوسائل والغايات». ففي بدايات مُعايشته لمرحلة تصوفه الأولى كان ألدوس هكسلي يرى الوجود المادي بشكلٍ مُبالغ فيه، إذ رسم له صورة منحرفة قليلًا لتجعله يبدو وكأنه مجرد خطأ كوني نشأ عن طريق الصدفة، ولكن لاحقًا وبعد أن تواصل مع عدد من الرُهبان البوذيين تمكن من تصحيح هذا المفهوم -شيئًا فشيئًا- حتى توصل إلى معنى آخر فيما يتعلق بمفهوم الصوفية.

ومع ذلك فإنه قد كشف عن مُفارقة أخرى لاحقًا عندما قام بتأليف كتابه «الجزيرة الفاضلة» الذي ابتعد فيه عن تناول ملامح التجربة الصوفية أو الروحية التي أشرنا إليها في السابق، وبدلًا من ذلك فقد قدم وصفا محددا غريبا للواقع المادي من وجهة نظره الراهنة، فقدم في كتابه هذا مجموعة تنبؤات تخص مستقبل البشر في ظل التطور العلمي الشديد، وضياع المشاعر الإنسانية والفطرية، وفقدان البشر لسعادتهم لقاء الحصول على مجرد وعد بالسعادة الزائفة من خلال وسائل التكنولوجيا الحديثة، كما أنه أكد أن المستقبل الإنساني سوف يصبح مُهددًا بتلك الطفرة التقنية التي ستجعلنا عبيدًا للآلة، فعلى الرغم

من تلك الرفاهية والقدرات المادية الهائلة التي سنتمتع بها حينها إلا أن البشر سوف يصبحون أقل قدرة على التواصل مع بعضهم البعض، كما أن العاطفة سوف تغيب بوضوح، كما أن العديد من الأمور مثل الحب والإعجاب والزواج والإنجاب وغيرها سوف تشهد تغييرًا جذريًا وسوف يكون هناك بدائل عديدة لها لتجعلنا نركض بدورنا في اتجاهات العصر الرقمي الآلي الذي يستهدف القضاء على إنسانيتنا، ولهذا السبب قد تبنى الكاتب البريطاني الشهير ألدوس هكسلي منهج البوذية في تناوله لأعماله الأدبية والفلسفية مؤخرًا ليكشف لنا أن ملاذنا وملجأنا الوحيد في ظل وجود تلك الأزمات القادمة التي سوف تشكّل خطرًا على هويتنا ووجودنا على هذه الأرض، يتمثل في تبنّي أحد تلك المناهج الروحية التي تُعزز التجربة الصوفية بداخلنا ولتجعلنا أكثر قدرة على التواصل مع أنفسنا والآخرين، إذ إنه حذر في أعماله المتنوعة من فكرة غياب لغة الحديث المُشتركة بين أفراد المجتمع الإنساني، فحينها سوف يصبح كل فرد مُنعزلا يعيش في قوقعته الخاصة التي سوف تفرضها الوسائل التكنولوجية، ولن يعد أحدنا يشعر بالرغبة في الحديث مع الآخر أو التواصل معه، كما أنه حذر من خطورة عدم التعبير عن الرغبات الإنسانية وأن يجد المرء نفسه مُضطرًا إلى كبت مشاعره حتى يمضي قُدُمًا ويواصل العمل تمامًا كطبيعة الآلة، ولهذا كله فقد أكد ألدوس هكسلي على أهمية تعزيز قيمة الجانب الروحي لدى المرء، هذا الذي يجعله قادرًا على اكتشاف ذاته وتطويرها، فمن المُثير للدهشة والحسرة أيضًا أن يتوقف الإنسان عن تطوير نفسه في ظل بلوغه أعلى مستويات التطور العلمي، فقد تنبأ ألدوس هكسلي أن العالم القادم سيفقد عديدًا من المعاني الشاعرية الفنية وسوف يركز على سلطة ومفهوم عصر العلم والتقنية، وبناءً على ذلك سيتراجع الشُعراء والفنانون وسوف يتولى الزعامة والسيطرة على زمام الأمور رجال العلم

Telegram:@mbooks90

والتقنيين وصناع الفكر الذي سيحاولون تحريك العالم كما يشاؤون، ناهيك أنه يرى أن الفنون سوف تُستَخدَم كوسائل للدعاية والترويج والإعلان فحسب في هذا العصر من خلال تسخير الأدوات والوسائل التكنولوجية الحديثة التي سوف تساعد الفنانين على تحقيق هذا الغرض، فحينها لن يكون الفن بهدف الفن.

لقد أكد ألدوس هكسلي على أهمية وجود المناهج الروحية المُعتدلة مثل منهج البوذية الذي اتجه إليه أيضًا لإيمانه بقوة أفكارها، حتى أن تأثيرها بدا واضحًا في أعماله التي صدرت في أوقاتٍ لاحقة، فقد رأى أنه الحل المثالي من أجل تعزيز قيمنا الروحية، وفرض سيطرتنا على عقولنا وأجسادنا وكذلك لزيادة مهارة التركيز التي سوف نفتقر إليها بشدة في المستقبل، أضِف إلى ذلك دورها البارز في تعزيز وتطوير عملية التعليم التي تعد الأساس السليم لكل شيء، وهي ضرورية أيضا من أجل خلق مجتمع إنساني أفضل ينشر قيم التسامح والتعاطف والمحبة والدعم وغيرها من القيم الروحية الاجتماعية التي يتنبأ ألدوس هكسلي باحتمالية فقدانها في المستقبل.

جدير بالذكر أن ألدوس هكسلي قد أشاد مرارًا بهذا الدور العظيم الذي تلعبه الممارسات الروحية التأملية مثل البوذية في خلق حالةٍ من التوازن الروحي لدى المرء، إذ أوضح أنها تقضي تدريجيًا على هذا النوع من القلق والتوتر من كل شيءٍ يُحيط بنا، فنحن مُصابون بهذا القلق المرضي من المجهول الذي لا نعرف عنه شيئًا، كما أننا متوترون بسبب تلك اللحظة الراهنة والماضية، وبناءً على ذلك فإننا نعجز عن التقدم إلى الأمام على النحو الذي نرغب فيه، فكل ما نود فعله حقًا هو أن نبقى في أماكننا جامدين وسط كافة تلك الأفكار المُربكة التي تقودنا إلى التَخَلُف عن الرَكب، فكلما ظهرت اتجاهات روحية وتجارب جديدة تدعونا

لخلق هذا التوازن الروحي المفقود، علت تلك الأصوات القديمة التي تُبَرر أهمية القلق والتوتر لأبناء عصرنا الحالي، مؤكدين أنه من دون تلك السمات لن يتمكن الأفراد من المُضي قُدُمًا بغية إنجاز أهدافهم وتحقيق مهامّهم، فالمسألة كلها تتمثل في ضرورة شعور الإنسان بالقلق حتى يتحرك من مكانه، فإذا لم يُباغته هذا الشعور من حينٍ إلى آخر لن يقوم بتحقيق أي شيء على الإطلاق، وسيظل كما هو دون حِراك، فهذا الفريق يرى أن القلق هو أكبر مُحَفِز للإنسان والمجتمعات من أجل تحقيق الأهداف المنشودة، فأحدهم سيقول إذا لم أشعر بالقلق والتوتر سأقول حسنًا، حياتي جيدة ولا يتعين عليّ أن أفعل شيئًا لتحسينها على أية حال!

لكن ألدوس هكسلي كان ضد تلك الفكرة، فقد كان يؤمن -وكذلك أنا- أنه لا يمكن للمرء أن يخلق شيئًا كان القلق هو الدافع الأساسي ورائه، فلا يمكن أن يُنتِج هذا الشعور السلبي أي أعمال إبداعية أصيلة تامة أبدًا، فلابد أن يغمر المرء شعورٌ بالسلام والأمن حتى يتمكن من خلق أشكال الفنون التامة، تلك التي لا يمكن بأي شكل أن تكون وليدة مشاعر القلق.

د. سوزوكي والفِكر غير التقليدي

لقد التقيت الدكتور سوزوكي مؤسس فلسفة الزِن بعد أن قرأت له مقالًا فلسفيًا بديعًا يتحدث فيه عن تلك الممارسة التأملية الروحية وأبرز منافعها للروح والجسد، ومع أني شخص عنيد صعب المراس لا أقتنع بأي وجهة نظر بسهولة، كما أنني لا آخذ الأمور على علاّتها إلا أن ما قرأته قد أذهلني وجعلني أشعر بغتةً ببارقة أمل وأقول لنفسي: تُرى هل آن الأوان لنتعرف على المعنى الحقيقي لكلمة استنارة؟

لقد بحثت طويلًا في هذه المجالات الروحية والتجارب الدينية الصوفية ووقعت في غرام تلك الفلسفة اليابانية التي تنشد تحقيق التوازن المطلوب من خلال تلك المُمارسات التأملية التي يغمر تأثيرها العقل والجسد، فبعد مرور مدة ليست بطويلة من قراءتي لهذا المقال المُدهش قد التقيت بالدكتور سوزوكي وحينها أدهشني ما رأيته! فقد كان رجلا لطيفا جدًا ذا روح مرحه، كما أنه كان أبسط إنسان رأيته في حياتي، فقد كنت أعتقد أنني سألتقي شخصًا مُتَكلفًا بعض الشيء يرتدي ثيابًا معينة ويتحدث بنبرةٍ ثابتة تحث على الملل مثل بعض الرُهبان التقليديين، لكنه قد فاق توقعاتي بالكامل، فلم يكن من هذا النوع من الأشخاص.

كان سوزوكي يعيش في غرفة تُحاصرها أكوام متعددة من الكتب في مجالاتٍ مختلفة، كما أنه كان يقضي ساعاته في القراءة والكتابة معًا.

مكثت برفقته لبعض الوقت، وحينها ناقشني في كافة تلك المسائل والقضايا التي تخص فلسفة الزن الياباني، التي تُغطي مختلف جوانب حيواتنا المعيشية،

فهي تسرد لنا قواعد فن العيش بسكينةٍ وسلام دون أن يُعَكِّر صفونا أي شيء، فكل شيء كما أشرنا يبدأ من العقل، وعليه فإن تلك الفلسفة المُتخصصة تقوم بدورها بتكريس جهودها الكاملة من أجل إبقاء العقل في أعلى حالات ومستويات الوعي الذهني من خلال الحفاظ على صفائه وتنقيته من كافة المُلوثات والمشتتات، فالبوذية تُركز دائمًا على تلك العلاقة الرئيسة الجوهرية بين الإنسان والطبيعة.

كان دكتور سوزوكي يتسم بالتواضع الشديد والموضوعية المُطلقة، فلم أره يومًا ينفعل على أحد تلاميذه. لم أره غاضبًا من سؤالٍ ما قمت أنا أو غيري بتوجيهه إليه، فقد كان رجلًا بارعًا في إدارة أي حوار كما أنه كان موهوبا بشدة في فن الجدال والمُناظرات، فقد ابتكر فلسفة الزن العظيمة التي تدعو إلى نشر القيم الروحية الإيجابية وتبنّي وجهة النظر العقلانية، فمن الصعب أن يقع رجل كهذا في فخ الغرور أو الذاتية.

عليّ أن أعترف أنني لم ألتق شخصية بنفس هذا القدر من الذكاء والمعرفة والثقافة والتواضع، فلم تكن فلسفته فحسب هي الرائعة المُدهشة التي نجحت في جذب الكثير من الناس حول العالم إليها، لكن معرفة مؤسس تلك الفلسفة عن قُرب كان أيضًا أمرا مُذهلا، فقد كان سوزوكي أحد أولئك المبدعين الذين يمتلكون القدرة على إظهار عبقريتهم دون بذل الكثير من المجهود لإثبات ذلك، تمامًا كما الحال مع العباقرة في مجالات الفن التشكيلي واللغة وغيره، ومع أن بعض القراء كانوا يتهمون كتاباته عن فلسفة الزن بالغرابَة إلا أنه كان يبدع بكل انسيابية تمامًا كمَن يفكر ببساطة دون تَكلُف، فنحن جميعًا نفكر بذات الانسيابية التي تسقط فيها شلالات الماء من السماء، تمامًا بتلك السلاسَة والبساطة التي

تشهدها تموجات المحيط وكتلك النجوم التي تُضيء الكون، وكذلك كأوراقِ الشجر التي تزدهر في أوقاتِ الربيع مُختلطةً بالنسائم، فنحن شلالات المياه والمحيط والنجوم وأوراق الشجر.

Telegram @mbooks90

انتهى